بيريسترويكا غورباتشوف

نقدٌ وتحليل

مسعود محمد

الجزء الاول

بيريسترويكا غورباتشوف

نقدٌ وتحليل

مسعود محمد

مكتبة النهضة
٨٢٥٧٩١/ك
دهوك - الشارع الرئيسي

الجزء الاول

مطبعة الحوادث
بغداد - ١٩٨٩

كلمة تمهيد

حين كتبت رسالتي الموسومة« الى العظيم غورباتشوف ، تحية ورجاء» لم اكن أطلعت في قراآتي على اى شيء مكتوب في الاتحاد السوفيتي يتصل بعهد البيريسترويكا والغلاسنوست مـا عدا خطاب ـ يومئذ ـ الرفيق غورباتشوف في الاجتماع السابع والعشرين للحزب الشيوعي بتأريخ ٢٥ شباط ـ فبراير عام ١٩٨٦ • وبعـد أشهر مـن طبع رسالتي ساقت الي الظروف المواتية نسخة من كتاب « البيريسترويكا » ترجمـة حمـدي عبدالجواد بمراجعة محمد المعلم ـ من منشورات دار الشرق في بيروت ، واعدادا من بعض صحف ومجلات موسكو لعهـد اعادة البناء والمكاشفة ، فتحت أمامي آفاقا واسعة ارتادها ـ عند الامكان ـ واجتلى منها امورا تتصل بفترة ستالين فما بعدها حتى عهد الرئيس غورباتشوف وواقعا قائما للاتحاد السوفيتي على صعيديه الشعبي والرسمي من غليان تختلط فيـه الرواسب المتراكمة مع بثقات الدفع المنبعث من ينابيع ختم عليها حوالي سبعين سنة • فبـدا لي بوضوح أن اقصى تصوراتي للشـر الذي اطبق على الشعوب السوفيتية خلال عشرات السنين لم تتجاوز قط حجمها الحقيقي المنكشف مما يكتبه عنه عامة افراد الشعب السوفيتي في صحف هذه الايام ومنشوراتها ولا كان ما توقعته من فداحة العراقيل بوجه اعادة البناء أضخم من واقعهـا

« الى القارىء »

ذلك هو تصدير او عنوان مقدمة الكتاب التي استغرقت ست صفحات من الخامسة حتى العاشرة ، ووردت في هذه المقدمة آراء جمة لا تخلو من حاجة الى تعقيب ولكني اقتصرت على عدد منها دفعا للاطالة المتعبة لي وللقارىء • والنقاط المخارة من المقدمة وما سيأتي منها في تناول متن الكتاب لا تغني القارىء عن مراجعة الكتاب نفسه فليس من الممكن نقل روح الكتاب ولا الجو المحيط بالنقاط التي يتناولها التعليق بكتابة نصوصها المقتضبة في هذه الصفحات • وسيجد القارىء أن جانبا من كلامي يشير الى آراء وردت في كلام الرئيس غورباتشوف دون أن تكون نصوصها نقلت لأن المنقول يقتصر على ما يتم التعقيب عليه فقط • وفي هذا الأطار من الأقتباس انقل فيما يلي صيغ الآراء التي اعقب عليها بالتتابع حسب موضعها في المقدمة واولها نص في أوائل الصفحة ٦ من الكتاب ، الصفحة الثانية من المقدمة ، بتعقيب في غاية الأختصار فهو في معرض قوله عن ضرورة نشر كتابه ووجوب اطلاع ذوى الشأن عليه من سياسيين ورجال دين ورجال أعمال وصحفيين ومدرسين ••• الخ ينهى كلامه بالجملة التالية :

« بخاصة وأن الصحافة والتلفزيون في الغرب تجتاحها موجات من سوء النية تجاه بلادى » •

فالذى اراه في هذا الصدد هو ان سبب انطباع الرئيس غورباتشوف هذا مرده الى عوامل أولية تنساب الى الوعي واللاوعي يصور الاشياء دون اى احتكاك ينبه الذهن الى التوقف فتمضي وكأنها بديهيات • من هذه العوامل ان أجهزة اعلام الغرب عموما تهتم بالجوانب المثيرة للاحداث والآراء والمواقف حتى أن صور الكوارث في المجلات والتلفزيون تطغى مئة مرة على صور الزهر والرقص والأفراح • ولو دقق المطلع على ما يسمع ويرى في أجهزة اعلام الغرب لأوشك ان يقول ان شعوب الغرب على وشك الانهيار لكثرة عرض السلبيات والمعوقات والاخفاقات التى تضخمها تلك الأجهزة من حيثيات وتفاصيل المعيشة اليومية الغربية • هم في العادة لا يذكرون الا عند الضرورة عوامل الامان والضمان والتقدم لأنها رصيد موثوق منه لا داعى لذكره ولا نفع يحصل من تكراره بعكس السلبيات فهي تتطلب التكرار والتركيز عليها عسى ان تعالج بسرعة • لا اعدو الواقع ، انى كثيرا ما اسمع من اذاعة لندن اخبارا ضد السياسة البريطانية تفوق ما هو موجه منها ضد روسيا وليس ذلك من باب الرحمة بروسيا ولكن لكون التهجم على سياسة بريطانيا أوفر وأقسى فهى منتقدة في الداخل وفي الخارج على حد سواء • ويقاس من ذلك سائر مصادر الاعلام • وعلى قدر متابعتي لاستماع الاذاعات فان اذاعة موسكو اشد عداوة في لهجته بمراحل ولا اظنني سمعتها مرة واحدة تقول كلاما هينا عن الغرب •

في نهاية هذه الصفحة عبارة موجزة اقتطفها لاقول فيها قولا في منتهى الايجاز ، تقول العبارة ما يلى : « ولقد قدم الحزب الشيوعي تحليلا انتقاديا للوضع الذى تطور بحلول منتصف الثمانينات » •

ان الحزب الشيوعي نام أكثر من ستين سنة ، وفي منتصف الثمانينات استيقظ جزء منه أخذ قيادة اعادة البناء • والذى أفهمه من كلام عامة

الكتاب السوفيت الذين ينشرون آراءهم في صحف روسيا ، هذه الأيام ، ان غالب المعارضة للبيريسترويكا تقوم من أصحاب الامتيازات من الحزبيين خوفا من زوالها . وهل كانت التصفيات الأخيرة بعزل هذا وتجميد هذا الا من بين غلاة البيروقراطيين الحزبيين ، وهل الخطر الأكبر على حركة التصحيح الا ناجم منهم ؟

في الصفحة ٧ من الكتاب قول عن تفسيرات الغرب للبيريسترويكا يلخصها الكتاب بقوله :

« هناك رأي يقول بأنها فرضتها الحالة المتدهورة للاقتصاد السوفيتي وأنها تعني التحرر من الوهم بالنسبة للاشتراكية ، وان ثمة أزمة بالنسبة لمثلها واهدافها النهائية » ثم بعد ذلك يعلل الكتاب من وجهة نظره بروز البيريسترويكا بأسباب منها قوله : « كان الدافع ... عدم رضانا عن الطريقة التي كانت تسير بها الأمور في بلادنا » ويقول بعده مباشرة « ولكن دفع اليها بدرجة كبيرة الوعي بأن طاقة الاشتراكية الكامنة لم يستفد منها كما يجب » . ثم يستعرض في جمل ، أسس التفاؤل في التغلب على الصعوبات بوجود أساس مادي سليم لديهم وثروة من الخبرات ونظرة عالمية عريضة ...

وفي رأيي ان تدهور الاقتصاد السوفيتي الذي هو مظهر التدهور الذي اصاب قواعد النظام سبب خطير من اسباب اعادة البناء لا داعي لأنكاره فاذا كان الاقتصاد سليما بسلامة القواعد التي ينهض عليها فما الداعي لاحداث ضجة سلبية تهز اركان الدولة ، وما الغرض من اعادة البناء في بناء قوي ؟ ان الشعب الروسي ومعه بقية الشعوب السوفيتية قد تحمل بعد كوارث الحرب مذلة جديدة في ستالينية منتصرة وانسحق بالقحط في الستينات على حين كانت الدنيا من حوله تموج بالمهرجانات الشبعانة

الكسيانة وخلفته اليابان المهزومة وراء ظهرها في كل ميادين الحياة المترفة . هذا الشعب كـــان خليقا أن يعبد عهدا في السبعينات وما بعـــدها يتصف بالمواصفات التي يدافع عنها الرئيس غورباتشوف . أما ان الطاقة الـكامنة للاشتراكيـــة لم يستفد منها فالذى هـــو معلوم في تجربتكم وتجربة غيركم ومستخلص بالمنطق والتفكير السليم ان الاشتراكية المفروضة بالقوة وغير النابعة مـــن طبيعة التطور الحضارى ليس لها الا المضمون الذى اكتشفه ستالين وهو سوق الناس بالعصا وتخنيث الفلاح بنزع الارض منـــه وقطع الألسن بالإرهاب وتسليط الحزب على الصناعة والثقافة وخيالات اليقظـــة واوهام الكرى مؤيدا بأجهزة امنية ترعب حتى الشياطين . لقـــد ثبت فـــي انتخاباتكم وانتخابات بولونيا ان الأحزاب الشيوعية مكروهة مـــن الشعب وهذا وجـــه خوف تلك الاحزاب من اعادة البناء لانها ستتلاشى الى كل منفورة من ناس لا ينتجون شيئا ويأكلون كل شىء . هذه الاحزاب فـــي سباق مع شعوبها بأكثر مما تكون روسيا في سباق مع امريـكا فالهدنة شـــبه مستحيلة بين البيروقراطية وبين عامة الشعب ولكن الصلح والتعايش ممكن بين روسيا وامريكا،ان اوضاعا واحوالا لا تقاوم تفرض على سيادتك مواقف وبيانات سياسية لا تحبها وفي موضوعنا الذى تناقشه نجد مصداقا لما أقولـــه من كلام لسيادتك يأتي في الثلث الاخير من الصفحة (٧) نفسها اذ تقول : « البيريسترويكا قد برهنت على أنها أصعب مما تصورناها في البداية » . ان جوهر الصعوبة يتمثل في ان الاشتراكية البلشفية هى القمع بعينه ولاشىء آخر غير القمع .. يقولون ان السمندر حيوان يعيش في النار ، وأقـــول ان القمع يعيش فيالقمع وان الاستبداد يعيش في الاستبداد وانالدكتاتورية تعيش في الدكتاتورية وان ميكروب السل يعيش في المرض . وارجـــو المعذرة في صراحتى ..

في نهاية الصفحة (٧) يرد الكتاب على من يقول بأن اهداف البيريسترويكا كانت وراء المقترحات السلمية الروسية في المجال الدولى ، يرد عليه بقوله : « .. وهذه مبالغة في تبسيط الأمور فمن المعروف جيدا أن الاتحاد السوفيتى يعمل منذ فترة طويلة من أجل السلام والتعاون ... الخ ، وأترك تعليقي الى موضع آخر سنلتقي به في بعض صفحات متن الكتاب لهذا الجزء أو غيره مما سيأتى .

والصفحة الثامنة كلها كلام جميل في الوضع الدولى ووجوب نهر الذعر النووى ، وبداية الكلام في ذلك صادقة اللهجة الى حد بعيد اذ تقول : « ... اننا نريد عالما متحررا من الحرب وبدون سباق تسلح ، واسلحة نووية وعنف ، ليس فقط لان هذا وضع افضل لتطورنا الداخلى : انه احتياج عالمى موضوعى ينشأ من وقائع ايامنا الحاضرة » . وتأتي العبارة التالية في الثلث الاخير من الصفحة حاسمة الدلالة : « ويبدو أن كل امرىء يوافق على أنه لن يكون هناك منتصر أو خاسر في مثل هذه الحرب . ولن يكون هناك من يبقى حيا » . وتقوى هذه الدلالات بعبارة في غاية الروعة في وسط الصفحة (٩) تقول : « نحن جميعا ركاب على ظهر سفينة واحدة هى الأرض وعلينا الا نسمح بأن تغرق فلن تكون هناك سفينة نوح ثانية » . ويستمر الكلام في الوتيرة الجميلة نفسها حتى نهاية الصفحة (١٠) وهي نهاية المقدمة التي عنوانها (الى القارىء) .

لي تعليق عابر مساير لآراء الرئيس غورباتشوف من زاوية خاصة : انالذعر النووى يتفاقم يوما بعديوم ليس لعدم توصل المعسكرين الى حظر الاسلحة النووية وتخريب ترساناتها بل لأن الاحتمال يتزايد بوصول الدول المجنونة الصغيرة وعصابات التهريب والأرهاب الى امتلاك مقدار من النوويات والهيدروجينيات في مدى ٥٠ سنة او ١٠٠ سنة يكفى لخراب

العالم او جانب كبير منه ثم انه يفعل ما هو أخطر من ذلك بكونه سببا في اختلال حسابات الدول الكبيرة وارتباك التدابير اللازمة لحصر خطرها ثم القضاء عليه فالدول الكبيرة مازالت متباينة في موضوع الارهاب الدولى وتفعل الصداقة مع هذا والعداوة مع ذلك وموازنات مصالح وخسارات المعسكر المقابل في ارهاب قائم وارهاب يزول ، تفعل فعلها الحاسم في ترك الارهاب يستشرى مع ان علاجه في اول قائمة الاولويات واسهلها في علاقات الدول الكبيرة ويكون عدم القدرة على اتخاذ موقف موحد منها موحيا بتعذر القدرة على علاج المشكلة من أساسها • ان شكم الارهاب الدولي هو من اخطر وجوهه ضمن علاج الذعر النووى •

وفيما يلي يبدأ التعقيب على فصول الكتاب حسب تسلسلها وبمقتضى ما هو مطلوب من تكلف العناء في محاولة اغناء مضمونه على قدر طاقتي في البرهنة والتسبيب بنية خالصة موثوق من أمانتها في تحقيق اى خير عام مقدور عليه •

الفصل الاول

البيريسترويكا

أصولها وجوهرها وطابعها الثوري

بعد الانتهاء من المرور الخاطف بنقاط بارزة من مقدمة الكتاب وقبل الدخول في التعليق على ما يجب التعليق عليه من مواضع الكتاب نفسه لابد من القول بأن الكتاب كله وما وراءه من حيثيات الأحداث والايديولوجيات والمواقف وتركيبة القوميات في المجتمع السوفيتي رجوعا الى تأريخه القديم ونزولا منه الى عملية ثورة اكتوبر وما صاحبها من خلاف رأى الجهات المشاركة فيها حول مدى تمادى الثورة في التغيير وما كان من فوز اصرار لينين على ابلاغ او تطوير الاتجاه الديمقراطي الأول للثورة الى اتجاه طبقي يضمن ـ حسب رؤيته ـ القضاء على المشاكل بضربة واحدة وليس على مراحل ، كل ذلك وغير ذلك مما يتصل به عرضا وعمقا من العوامل والمؤثرات أمر ذو خطورة حاسمة في فهم ظاهرة (روسيا السوفيتية) فهما شاملا عميقا يرفع العجب من توالي تأريخه على النحو الذي توالى به من اول يوم وصلت فيه السوفيات الى مواقع السلطة حتى يوم رفع فيه الرفيق غورباتشوف صوته بوجوب « اعادة البناء » . ثم ان ذلك كله لا يكفي بنفسه لفهم الموضوع من جميع الوجوه فالدولة السوفيتية ما نشأت في فراغ من حولها ولا بين دول متخلفة ولا حتى بين

دول تماثلها في قوة الحضارة والتطور .. ثم انها ما دبت على اديم التاريخ مدفوعة بحكم الاحداث والمستلزمات التى تقود بذاتها خطى المجتمعات في تعاملها مع الدنيا من حولها بحسب موازين الربح والخسارة :

هناك تركية دولة القياصرة في روسيا نفسها وممتلكاتها «مستعمراتها» الواسعة .. وهناك دول متقدمة تصطدم بالدولة الجديدة او تصطدم بهـا الدولـة الجـديدة . وهناك دول متخلفة وشعوب لم تبلغ بذاتها حـد تشكيل دولة .

وهناك «أنجيل» للدولة السوفيتية يصوغ سياساتها وتصرفاتها ، ومنها الضار والنافع ، ومعاني الأشياء في كل ما هو «اجتماعي» . ولا ينقض هذه الحقيقة ان من يطبق الأنجيل الجديد يفسره على هواه او على ما يعتقد انه المصلحة فانه لابد من ان تجري الامور في ضوء هذا الأنجيل القديل على نحو من الانحاء .

وللقارىء ان يجرب في (امتحان الاحتمالات) أى شأن من شـؤون الدولة السوفيتية فيتصوره على نحو مخالف له كاحتمال ان تـكون روسيا مجردة من الأمتداد الأسيوي حتى المحيط الهادي فينى على ذلك مجرى الأحداث اللاحقة لقيام الثورة ولاسيما بعد وقوع الهجوم النازي عليها في الحرب الكونية الثانية وما عسى كان خليقا ان يحدث بافتراض انعـدام العمق الستراتيجي المتمثل فيما وراء الأورال . أما أنا فأجرب للتوضيح ثورة اكتوبر بلا ختام شيوعي ، وكان هذا احتمالا غير مستبعد بل كان هو الاحتمال الأقرب الى الوقوع في مقدمات الثورة التي لم تكن الشيوعية من اهدافها فان اول نتائج ذلك ألا تقع الحرب الأهلية (الداخلية) ولا حرب التدخل الأجنبي ولا تكون حقبة الستالينية وما بعدها من احقاب الجمود السياسى ولم تكن تنهض حاجة الى « اعادة البناء » وانما كان خليقا بمجرى

التأريخ أن يلد مشاكل وعراقيل من نوع آخر هو في اقرب الأحتمال من جنس مشاكل المجتمعات غير الشيوعية . وما قلته هو شيء أقرب الى البديهية منه الى تخمين خيالي بل هو أدنى الى القبول حتى مما قاله سيادة الرئيس غورباتشوف في مقدمة كتابه أنه لو أخذ باقتراحات الاتحاد السوفيتي – في ميدان السلام – لأدى الى تطبيع الوضع الدولي (نهاية الصفحة ٧ من الكتاب) .

فالوضع الدولي لا يسهل تطويعه وتطبيعه حتى بافتراض عدم وجود معسكرين ذوي أتجاهين سياسيين مختلفين فكم من حروب ثارت بين الدول قبل وجود الدولة السوفيتية وكم ثار من خلاف وصل الى الحرب الفعلية بين الدول الشيوعية ... ولست اقصد بهذا التقليل من خطورة رأي الرئيس غورباتشوف فهو رأي جدير بالاحترام وينم عن روح مشربة بحب السلام ولكن أردت أن أدافع عن رأي قلته في افتراض وجود روسيا بلا شيوعية فلم اجد لذلك سندا اقوى مما أستشهدت به من قولة الرئيس غورباتشوف ..

فالفهم الكامل للروافد المنصبة في بوتقة « الدولة السوفيتية » ما بين تأريخية ومعاصرة وداخلية وكونية مضافا اليه تصور مقارب لحقيقة طبيعة « الانسان » فردا متفردا وفردا متشابك الوجود مع بنية المجتمع الذي يعيش فيه ، باعتبار الأنسان أس الأساس في كل ما هو تأريخ واجتماع بكل ما فيهما من قبح وجمال وخير وشر وفضيلة ورذيلة وتقدم وتأخر و ... و ... الخ هذا الفهم ضروري جدا لمعرفة أو أستكناه « التجربة الشيوعية الرائدة » التي كان من نصيبها أنها انبعثت في روسيا دون العالمين . بل ان فهم العوامل التي حصرت احتمال قيام الشيوعية في روسيا ألزم من اللازم كي يمكن قبول قولي الآنف في ان

ما يعبر عنه « بالنصيب » حدد روسيا مكانا لقيام الشيوعية فلقد كان من الممكن ان تجري الأمور في ساحة المعارك بين روسيا والمانيا في الحرب الأولى على نحو يجعل من المتعذر حصول بعض الأسباب الحاسمة لسقوط القيصرية ، بل انه كان من الممكن ألا يستطيع لينين الوصول الى روسيا أصلا أو ان يصل بطرق معقدة مطولة تتأخر به عن الوصول في الوقت الملائم فيكون للثورة اتجاه آخر . فالحتمية في قيام الشيوعية سنة ١٩١٧ في روسيا كانت أضعف أسبابا من مقدار الحتمية التي بعثت الثورة الفرنسية « البرجوازية » وهذا التفاوت في مقدار « الحتمية » للثورتين هو بحد ذاته يقدم تفسيرا مقبولا لفترة الستالينية فأنه أسهل على الطامع الأستيلاء على شيء ساقه « النصيب » فيصوغه حسب مشيئته ويحرفه الى غير وجهته. أما الشيء الذي ينبعث بقوة نموه الطبيعي فليس من الهين امالته عن الوجهة التي حددتها طبيعة المنابع والجذور التي تغذيها . ويصح القول هنا ان العوامل الأصيلة التي اخرجت الثورة الفرنسية الى الوجود هي نفسها مهدت السبيل لأختفاء الخزعبلات التي رافقت انبعاثها الأول في وقت قصير نسبيا ـ بل انه لابد من ملاحظة أمر على غاية الخطورة في طبيعة عموم اليسار الذي هو المظهر السياسي التشيط لمعنى أوسع منه يشمله ويشمل غيره من مواقف عدم الرضا بالواقع واعنى به «الانتقاد» في اطاره العام فالأنتقاد في جوهره هو رفض الموجود من موقع اللامسؤولية فلربما أوغل « المتفرج » في انتقاد صرح شامخ وهو نفسه عاجز عن بناء كوخ لدجاجاته ـ وقد يتناول عابر السبيل رؤساء الدول على عدم اتفاقهم في مسائل الأقتصاد والسياسة ومصائر الأمم بالتجريح والتجريم وهو عاجز عن التوافق مع أفراد أسرته . والثورة في المعتاد تقع على يسار اليسار وهي « انتقاد عنيف رافض رفض الأزالة والنقض لما هو قائم في البنيان السياسي المحرك للأمور » . وعلى قدر ما في الثورة من عنف يكون

تبريرها لذاتها وتجريمها لخصمها أمرا خارجا عن أطار المناقشة ونازلا منزل البديهية في نظر القائمين بها فهي في هذا المنظور انسلاخ كامل من الشعور بالمسؤولية تجاه البنيان السياسى الذي تريد هدمه . وأيا يكن تبرير الثورة لذاتها ومهما يكن دعاواها في استيعاب الكون وحركة التأريخ ومكنونات « الأجتماع » مدوية مجلجلة فأنها بالضرورة وعلى سبيل الحتم تكون طوبائية بشكل مزدوج : فهي طوبائية في تثمينها وتقويمها لخصمها من حيث ان هذا الخصم ليس بالسوء الذي تعزوه اليه : وهي طوبائية في تثمينها وتقويمها لنفسها فهي ليست بالصلاح الذى تدعيه . كثيرا ما وجدنا الثورات تعجز عن توفير البصل في السوق وكان قبل الثورة مركوما لا يشتريه أحد . ولم نجد واحدة من الثورات تعترف للناس بأن جهلها في مهنة البقالة هو سبب اختفاء البصل فهي تصر أما بعلم او بجهل تام على ان قوة الردة واعداء التقدم والسلام هم سبب هذا الأختفاء وما اكثر ما علقت الثورات ابرياء الناس في حبل المشنقة سترا لقصورها في تطويع الطماطم وبيض اللقلق ...

وجهة النظر هذه في ابراز معنى « اللامسؤولية » في موقف « الأنتقاد » ليست شجبا لفكرة النقد وانما هي محاولة لفتح العيون على حقيقة خطيرة تختفي من الحسابات بشكل عام . فكما انى لا أشجب وجود البارود في شجبي لأساءة استعماله كذلك لا أقصد من نقدي للمنتقد ان يكف عن الأنتقاد والا كان أول واجب اعمله هو أن أكف أنا عن نقد المنتقد ... فلن يكون هناك نقد بناء اذا جهل الناقد هذه الحقيقة : وهي ان عامة النقد خالية من المسؤولية ... ولا يغرنك كثرة ما يردده الناس من وجوب التفريق بين النقد البناء والهادم ، فاذا لم تتوضح فكرة

خلو النقد من المسؤولية سيظل أشد الناقدين هدما اقواهم ادعـــاء فـي طلب البناء .

كثيرة وكثيرة جدا مقومات الفهم الصحيح للظواهر الأجتماعية بمـا فيها التأريخ وأحداثها فانه مما يحتار فيه الفهم ما يجده من اصرار شعوب وعقائد على ترك الشعر ينمو كما يشاء بلا قص أو ما هو من عادة بعضهم في حك الأنوف بعضها ببعض عند التحية ... فكيف بالأحداث الجسـام المدوية المزلزلة مـن مثل الثورة الروسية في التي بشرت به والذي فعلتـه في واقع الأمر . فاذا كان تبرير الذات يصل بالثوري الى حد تصفية زميل الكفاح لغير سبب واضح أو لسبب لا يستوجب غير العقاب أو لشك يثبت فيما بعد أنه باطل وهو موقف عبـــارة عن الأنسلاخ من مطلق الشعور بالمسؤولية فكيف يكون حكمه على الخصم الذى تطاله يده . ولمـا كـانت الثورة تمثل الطرف الأقصى من مواقع الأنتقاد فهي يكفيها هـــذا السبب وحـده لتخلي نفسها من أية مسؤولية وهي تنتقد وتقبض وتطلق وتعمر وتدمر ... فاذا أضيف الى هذا السبب الأل سبب آخر ثان يمتد بامتـداد عنفوان الثورة وهو أنها لا تسمح لأى انسان ضمن سلطتها بتوجيه النقـد اليها فقد انكشفت سهولة دوامها على تبرير الذات وتقديس مـــا تفعـــل وشجب الدنيـا من حولها فيمـا لا يعجبها من أمورها ... أن انعـــدام امكانات النقد والمعارضة في البلدان الثائرة بحصر كل وسائل الأعلام فـي قبضة أجهزة الأمن والقمع والسيطرة يطيل من عمر تراكم السلبيات الى مديات لا يقدرها أحد . فلـكي يظل مرفق هام من مرافق البلد الثـائر متخلفا ومتعفنا يـكفي فيه أن يـكون واقعا في حماية شعار مضلل رفعتـه الثورة في بعض مراحلها دونما حاجة الى تلفيق أسباب وهمية من قبيل حيل الأستعمار والبرجوازية ووجود حركة ارتدادية بين سواد الناس فـــأي

دس استعماري برجوازي نصب ستالين الاها تعبده مئات الملايين من مساكين هذا الكون ثلاثين سنة ؟ وأية قوة شيطانية حملت ماو على اكتشاف جاسوس استعماري في شخص صديق كفاحه ، رئيس جمهورية الصين الشعبية ليوشاوشي ؟ فاذا كانت هذه الكوارث الماحقة ومنها الثورة الثقافية تنبع بذاتها من رحم الثورات فما الحكمة في الأنشغال بالتحري العقيم عن اسباب شيطانية في تفسير امور صغيرة من مثل فشل هذا المعمل وبوار تلك المزرعة فان شيطنة ستالين وضلال ماو (في اواخر عمره) بما يمثلان من مأتم قومي عالمي حضاري في ضخامة التاريخ نفسه خليقة ان تفشل بها كل المعامل وتبور كل المزارع ولها بعد ذلك فضل قدرة على خلق ما لا يمكن التنبؤ به من صنوف الأباطيل !

انحصار وسائل الاعلام في يد السلطة الثورية وتيسيرها لعامة الناس في البلدان الآخذة بحرية التعبير والارادة جعل كفوف السياسة فيهما متفاوتة الى حد التناقض فقد وجدنا جرجل بريح الحرب لبلده في مواجهته مع النازية لكنه يخسر معركة الانتخابات خلافا لكل التوقعات المبنية على ظاهر الأحوال المألوفة . واستمر فرانكو وتيتو وستالين وماو وغيرهم من حكام البلدان الدكتاتورية حتى نهاية اعمارهم في دست الحكم على حين سقط نيكسن فيما سمي بفضيحة (واترجيت) التي لم تكن قط بالضخامة التي أبرزتها بها وسائل الأعلام الأهلية وكاد رونالد ريغان نفسه أن يسقط في (ايران جيت) وكلا الحدثين لا يستطيع أن يتسبب في نأمة أعتراض على الحاكم المستبد بأمره والقابض على وسائل الأعلام بقبضة قوية في بلده ولو اراد احد في تلك البلدان بثمن من دمه أن ينشر ربع صفحة في نقد شيء حكومي استحال ذلك عليه لأمتناع المطابع والتايپرايترات كلها عن طبع حرف واحد مما كتب أو نظم ... والواقع

ان طول الكبت والتقيد والتهديد بالعقوبة مصحوبا بدوام التصفيات على نطاق واسع وفي جو مجرد من اية وسيلة لحماية الذات والأنصاف من الظالم يقتل في اعماق الانسان الاحساس الرافض للظلم والمذلة فيروح يداري نوازعه بالسعي في توفير لقمة العيش وسقف يؤويه ولا يستغرب أن يخلق توالي عشرات السنين في تمجيد نظام معين وتخوين ما عداه شعورا عند الناس بتقبل الواقع على أنه الأحتمال الصالح الوحيد ...

رحلتي مع البيريسترويكا مسبوقة بعشرات السنين في اختبار النظريات والايديولوجيات وعرضها على المنطق الخالص وعلى ما يتحصل منها في تطبيق المجتمعات لها ولقد عودت نفسي أن انظر الى الواقع والى التاريخ على انهما شيء واحد فالفرد الذي اراه بعيني منخرطا في التعامل مع المجتمع هو نفسه الذى تبنى النظريات الأجتماعية والفلسفية الأنسانية والأحكام التأريخية على مجمل شأنه ، فلا انخدع قطعا بالروايات التي تحوكها السياسة ولا بالتجريدات التي تصوغها الفلسفات عند تناولها للأنسان فكل صورة للأنسان أراها من خلال حياكة المهرة من المنظرين في عرضهم للأجتماع والتأريخ ، ارفضها رفضا قاطعا اذا كانت مخالفة لمشهوداتي .

فالعبارات التى تحشى بها بطون الكتب من قبل المؤرخ الذي له غرض سياسي عند كلامه عن الناس من مثل قوله : الجماهير العريضة الطيبة ... عامة الناس المحبة للخير والسلام ليفصلها عن الأشرار مصاصي الدماء ـ طالبي الحرب والدمار من البرجوازية !! هراء محض . فأنا أعرف وأنت تعرف هؤلاء الطيبين على حقيقتهم أو بشكل مقارب للحقيقة فلا يمتازون عن غيرهم الا بمقدار ما يمنعهم فقرهم ومسكنتهم وقلة استطاعتهم من الأبغال في الأثرة والأنانية مع وجود تفاوت في الطبائع بين الأفراد سواء

كانوا تجارا أو بقالين أو حمالين أو فلاحين • ومن البديهي ان يكون المتحضرون ذوو التربية السليمة في البلدان الراقية اكثر تمسكا بالتصرف السليم ومراعاة القوانين والمصالح من جماهير الشعوب المتخلفة •

لقد حدثت مغالاة شديدة من قبل سياسيي اليسار في اعتبار التمايز الطبقي حدا فاصلا بين الصلاح والفساد حتى كأن المنتمي الى طبقة ما هو من فصيلة غير فصيلة الشخص المنتمي الى طبقة اخرى •••• ولم يكن هذا واقعا في الماضي ولا هو واقع في الحاضر الا بالحاح من منظري اليسار ومهيجيه ، فالطبقات متداخلة وبينها حاشية عريضة من المصالح المشتركة التي لا تنفصم الا بالقوة القاهرة • والصورة المكفهرة التي يرسمها منظرو اليسار للمجتمع الطبقي لا توجد الا على الورق • وعلى الجانب الآخر لا توجد صورة مشرقة للمجتمع اللاطبقي في واقع الحال الا بتلفيق من الدعاة والمنظرين بل ان جبروت الشخص الحزبي أو من اجهزة الأمن في المجتمعات اللاطبقية يتجاوز بمراتب كثيرة اى سلطات قد يكون في حوزة الرجل الثري في اى بلد بالعالم •

اقول هذا وغيره مما ليست له نهاية ملحوظة كي ترتفع عن نظر القارئ والقارىء الصورة السحرية التي ترسم بها المجتمعات اللاطبقية والصورة الشوهاء للمجتمعات الطبقية ، حتى ان مصطلح « اللاطبقية » بحد ذاته فيه كثير جدا من مجاملة الذات ذلك ان التفاوت في مقادير الهبوط والصعود من حظوظ الناس وسوء الأحوال لاسيما ما كان منها متصلا بالحريات العامة في اللاطبقيات أفشى وأفدح من اوساط المجتمعات الطبقية واترك بلدان قمة الحضارة من مثل الدول الأسكندنافية التي لا تقبل اى وجه من وجوه المقارنة • والضرورة قضت أن تعنى اللاطبقية المفروضة بالقوة مجرد حذف التملك الفردي وقدرة الأفراد أن يكونوا اصحاب

مشاريع تقابله احمال واثقال من فقدان حرية الارادة والتعبير عن الذات فضلا عن فقدان الرفاه الحقيقي • صحيح انه بذلت جهود كثيرة فيما سبق من الزمان لكيلا تكون الاوضاع بهذا السوء بل ان تكون مريحة مغدقة ولكن سد أبواب التقدم المبني على الجهد والابداع الفرديين وحصرها في يد المنظرين والموجهين الذين اصبحوا كتلا صماء من البيروقراطية المتحجرة وثابروا باصرار الشهداء على توزيع الخير والتقدم والرفاه من خلال قطارة انجيل الثورة وما يتفتق عنه ادمغتهم المقولبة من صنوف التأويل جعل التقدم عملية صعبة التحقيق •

في الفصل الاول من كتاب البيريسترويكا عنوان من ثلاث كلمات في وسط الصفحة ١٣ منه : أصولها ، وجذورها ، وطابعها الثوري •

وبعد أسطر مما سبق عنوان جديد هو :

البيريسترويكا ـ ضرورة ملحة

ويجلب النظر ، بل يطلب التعليق ، عبارة مختصرة من اوائل كلمات الرئيس غورباتشين تقول :

« فالبيريسترويكا ليست نزوة لدى بعض الأفراد الطموحين او مجموعة من الزعماء » وهو كلام على درجة عالية من الصحة وتحتمل زيادة تأكيد أيضا كما أكد الرئيس غورباتشوف نفسه بعد أسطر قليلة من: « ان البيريسترويكا ضرورة ملحة نشأت من عمليات التطور العميقة في مجتمعنا الأشتراكي • فهذا المجتمع ناضج للتغيير ••• » ولكي يكون كلام الرئيس غورباتشوف على اكثر ما يكون من الوضوح ارى ان أعلق عليه بما يلي :

١ ـ ان البيريسترويكا ليست نزوة رجال طموحين ولكنها في الوقت نفسه ليست حركة انبعاثية من بين صفوف الشعب فهي بالتأكيد رأي رآه رجال قيادة الحزب والدولة وسط ردود فعل قوية من المتمسكين بالأساليب المتقوقعة ولم يكن لها احتمال آخر بان تكون طلبا من الجماهير لتصحيح الحال فالجماهير لم تعود ولم تتجزأ قط على طلب شيء بارادتها هي • وما كان لها ان تسلم من معارضة المتقوقعين والحزبيين والمستفيدين من حالة فقدان الارادة الشعبية •

٢ ـ انها ضرورة ملحة •• وان المجتمع السوفيتي ناضج للتغيير • مع ملاحظة ان هذه الضرورة هي أشبه بضرورة عملية جراحية تستدعيها حالة مرضية وليست ترفا اضافيا يضاف الى الترف المتراكم • والمجتمع السوفيتي ناضج للتغير نتيجة تراكم السوء والتخلف عن روح العصر وتراجع القدرة الأنتاجية وفقدان الحماية القانونية وانعدام القدرة عند عامة الناس لرفض ما هو سيء وطلب ما هو مرغوب • ولو بقي بريجنيف وما يمثله من اتجاه سياسي وايديولوجي متحجر لبقيت الضرورة الملحة ضرورة بلا حل وبقي المجتمع السوفيتي ناضجا للتغير بلا تغير فانه من السوابق التأريخية المؤاتية المسعفة أن يوجد مثل سيادتك ناس لهم الرؤية ولهم الجرأة للاقدام على اجراء العملية الجراحية وان كنا لا ندري حتى الساعة مقدار احتمال النجاح والفشل في هذه المحاولة الرائعة فالمعادلة التي تنهض عليها العملية ذات مجهولات ثلاثة أساسية :

١ ـ ما مقدار المدركين الجريئين في القيادة والحزب بالقياس الى القوى المعارضة للتغيير •

٢ ـ ما مقدار وضوح الرؤية عند أنصار التغير في الذي يجب أن

يؤخذ به من الأسس الجديدة للتفكير والبرمجة التي تتطلبها طبيعة العملية المحاطة بالمصاعب الخطيرة !

٣ ـ ما مقدار المسموح به في مشاركة الجماهير بوصفهم بشرا احرارا يرسمون مصائرهم ؟ وهل هم احرار حقا في ان يختاروا طريقة حياتهم ؟

هذه الأسئلة خليقة أن تصادفنا في سياق هذا التعليق مرارا .

في اوائل الصفحة ١٤ من الكتاب يقول الرئيس غورباتشيف ما يلي :

« الاتحاد السوفيتي دولة فتية لا مثيل لها ... فخلال العقود السبعة الماضية اجتازت بلادنا تأريخا يعادل قرونا . وقامت واحدة من اقوى الدول في العالم لتحل محل الامبراطورية الروسية المتخلفة شبه الأقطاعية وشبه المستعمرة لدينا قوى انتاج ضخمة وقدرة فكرية جبارة وثقافة رفيعة ومجتمعا فريدا ورعاية اجتماعية راسخة لـ ٢٨٠ مليونا ... »

استسمح الرئيس غورباتشوف في أن اكون صريحا مع نفسي وأنا مسترسل مع افكار البيريسترويكا .

ان الدولة السوفيتية فتية فقط في عمرها الشيوعي وكانت الثانية اكثر فتوة بعمر لم يتجاوز بضع عشرة سنة لكن روسيا القيصرية دولة ممتدة العمر الى ماض غير مسكين ولا فقير في أقبية العصور التي حكمت فيها . ففي اواسط السبعينات ، مثلا ، دعيت بوصفي وكيلا للمجمع العلمي الكردي ببغداد الى الحضور في الاحتفال بالذكرى المئتين والخمسين للاكاديمية السوفيتية فيكون اكثر من مئة وتسعين سنة من القرنين والنصف المحتفل به واقعا في الحكم القيصري ، وليس ذلك بالأمد اليسير اذا أخذنا قياس الأمور من الدول التي لم تؤسس اكاديمية الا في

القرن العشرين • ووجدت في بعض الافلام الروسية قصورا وتلاعبا للاقطاع الروسي في القرن السادس عشر لم تزل بضخامتها وديكوراتها وطرز بنائها وجمال ابهائها ورواء قاعاتها ومراسيم احتفالاتها عصية على قدرة كثير من شعوب اليوم في ان تبني مثلها بتكنيكها وريازتها وامكاناتها الحضارية ••• ويوم غزا نابليون روسيا في اوائل القرن التاسع عشر كانت موسكو تسمى مدينة القباب الذهبية ••• ومراكز الحضارة الكبيرة المتمثلة في المدن الضخمة كانت منذ بضعة قرون مظهرا بارزا من مظاهر الوجود الروسي • وبالرجوع الى الخرائط القديمة نسبيا نجد شبكة خطوط المواصلات الحديدية في روسيا واحدة من الشبكات الملحوظة في دنيانا وتم ربط اوروبا بالمحيط الهادي عبر سيبريا بواحد من اطول خطوط السكك بل اطولها على الاطلاق في بعض عهود الحكم القيصري •

ولم تكن تسمية روسيا بواحدة من دول العالم الخمس الكبرى في القرن الماضي عبثا فقد كفى أنها كانت تملك ثلاثة أساطيل مستقلة : واحد في الشرق الاقصى وواحد في البلطيق وثالث في البحر الأسود •• وتطول قائمة الأسماء البارزة من رجالات الروس في كل حقول المعرفة على العهد القيصري حتى اني أجد في بعض كتبكم تقتصرون على ذكر علماء الروس القيصريين في الفيزياء والنبات وغيرها من العلوم التجريبية ونادرا ما تذكرون غيرهم من علماء الأمم الأخرى الا ما كان منهم من قبيل غاليليو أو نيوتن او داروين او اينشتاين من الرواد الذين لا يصح اهمال أسمائهم •• وكفى في هذا الصدد أن خميرة الثورة البلشفية كانت مليون عامل بروليتاري منضبط في بتروغراد وموسكو • ومن المفارقات التي لا يمكن اغفالها وهي مفارقة صارخة احتار في سبب اغفالها من قبل عامة المعنيين بحيثيات الأحداث في دنيانا ، ذلك أن التقدم الحضاري الذي كان

متحققا وملموسا في روسيا عبر قرون متوالية مكتفا بألوان من القصور والنقص في الأدارة والتوجيه وأشكال من الفساد الاجتماعي والسياسي خلق الظرف الذى تكررت به محاولات التغيير وابرزها في عهد ما قبل الثورة الكبيرة كانت ثورة ١٩٠٥ الفاشلة . والنجاح الذي حصل لثورة اكتوبر نفسها كان حصيلة مزيج من الحضارة ومن الهزيمة العسكرية . فالحضارة في كل الأنتفاضات الروسية سبب دائم وثابت وبدونها ما كان في الامكان ان تحدث واحدة منها جديرة بأن تسمى « أنتفاضة » أو ثورة .. وبشكل معاكس نجد السبب في قيام « اعادة البناء ـ البيريسترويكا » هو تراكم السلبيات وشلل القاعدة الجماهيرية عن الابداع وتحجر العقلية القائدة على قوالب جامدة فاذا كانت الثورات القديمة عبارة عن انتفاضة جزء من الناس ضد الأقلية الحاكمة فان البيريسترويكا هي انتفاضة بعض الجسم الواحد ضمن هيكل الجسم وهي في اقرب معنى للحقيقة ، بمثابة انفجار دمل من الداخل ولكن بمبضع طبيب جراح يمثله «غورباتشوف» ولم يكن متصورا قط أن يأتي التصحيح او « اعادة البناء » أو تفجير الدمل من خارج الهيكل النوري الموروث من نحو سبعين سنة فقد كان اول شيء وأهم شيء مَلته الثورة البلشفية لدوامها واستحالة الارتداد عليها هو انها جعلت الشعب كله جزء من نفسها غير منفصل عنها ولا قادر على الأنفكاك منها وأستفذت في هذا كل وسيلة متاحة للضبط والهيمنة حتى استطاعت أن تمسح من النفوس مجرد التفكير في عدم الرضوخ . ويحضرني في هذه المناسبة شيء قلته قبل عشرين سنة ورددته بعد ذلك مرات ومرات أقتضتها الدواعي واعيده هنا تحت عنوان :

سالوفة قصيرة

كنت قرأت كتاب لينين State and Revolution

« الدولة والثورة » منذ سنوات وجلب نظري عنفه في رد الأسباب لأى شيء يقع في ساحة المجتمع الى « الاستغلال » فقد قال ان السبب الوحيد الذي دعا الى تشكيل الدولة هو ما ارادته الطبقة المستغلة « بكسر الفين » لأدامة استغلالها فابتدعت نظام الحكم ورتبت المحاكم والقوانين والسجون ..الخ ويوم يختفي الاستغلال في الحكم الشيوعي تلاشى الحكومة من ذات نفسها بسبب زوال العلة الوحيدة لوجودها وهو الاستغلال . فقلت انه من غرائب المصادفات ان يجرى التاريخ على خط معاكس تماما لما قاله لينين فكأنه – اى التأريخ – قد آلى على نفسه محاربة رأيه ذلك . فاذا كان في الامكان تشبيه الدول القائمة على اساس بقاء الطبقات والاستغلالات بفاكهة فان حكوماتها هي قشرتها وبعدها يأتي لب الفاكهة وهو الشعب ، اما الدولة المبنية على أساس الماركسية فهي أشبه باللهانة كلما نزعت ورقها وجدت تحتها ورقا مثله حتى تأتى على اوراق اللهانة كلها واذا بالشعب كله صار ورقا اى حكومة اى ان الشعب اختفى وليست السلطة . ففي روسيا السوفيتية لم يكن للشعب وجود مستقل عن السلطة والحزب ولينين وماركس حتى يستطيع التفكير في اعادة البناء او اى شيء آخر غير الواجب الموكول اليه . فانا لا يستقيم لي بسهولة تسمية البيريسترويكا بثورة كما يصفها الرئيس غورباتشوف فالمعتاد في التداول السياسى ان تسمى الثورة التى تقع ثانية بعد الثورة الأولى بالردة أو الانتقاض فليس لي مصطلح جاهز لهذه الظاهرة الا ما قلت من أنها « تفجير دمل » . أما أن يقال ان العملية كلها من السعة والشمول بحيث أنها تستدعي

مشاركة الجماهير العريضة في انجاحها فان ذلك يدل فقط على أن العمل انتفاخ كبير للغاية يختزن مقدارا هائلا من القيح • ثم ان القائمين بها انفسهم قطعوا السبيل في واقع الأمر على من يحاول تسميتها بالثورة فهم على حسب ما يظهر من كلام الرئيس غورباتشوف يستعينون بالماركسية واللينينية ومخزون انجازات الثورة البلشفية لمعالجة الخلل الذى انبعث ابتداء من هذه التطبيقات والتنظيرات فهي في أحسن ما يمكن من تفسير لها أن تشبه بمداواة المعلول عن سبيل الأجزاء الصالحة الشافية من الدواء المركب الذي كان هو العلة نفسها فهي لا تخرج عن معنى تفجير العمل بحال من الأحوال ولا أرى وجها لتسميتها بالثورة • وما كان هذا التعليق مني الا انسياقا مع منطق الاشياء والمسميات بصرف النظر عما يكون اولا يكون من تأثيره في الرأي المتولد من طبيعة البيرويسترويكا فالمهم ان تنجح العملية الجراحية فاذا نجحت لم يكن لتسميتها بالثورة اى ضرر ، الا أن للمسألة مكونا خفيا لا يمكن اغفاله وسيعمل عمله مهما تجاهلناه أو جهلناه • واستعير من الفزياء مثالا للتوضيح : فلقد كان القدماء يقولون أن الطبيعة من حولنا تتكون من العناصر الأربعة التي هي الماء والنار والهواء والتراب • وكان الفلاح في القديم وحتى يومه الراهن لم يدرك مسألة العناصر الاربعة فضلا عن ادراك خطئها ، ومع هذا ظل يفلح ويبذر ويحصد بنجاح وكذلك تعمل جميعا في السوق والشارع والمعمل وفي المقاهي والفنادق والمطاعم ومطابخ البيوت دون ان نفكر في مسألة هذه العناصر الأربعة أو المائة والاربعة • ولكن المسألة لا تدوم لها السلامة اذا تسللت فكرة العناصر الأربعة الى اذهان علماء الفيزياء والكيمياء على انها هي الحقيقة لأن عوالم بأسرها في أرضنا تتبخر

بدءا اذا اخطأ علماء الذرة في تعداد العناصر . وليس شأن تسمية البيريسترويكا بالثورة ومحاولة ايجاد العلاج لها من النصوص اللينينية والماركسية من قبل القائمين بأمرها أقل ضررا من خطأ علماء الذرة في شأن العناصر : أنا وأنت ايها القارىء وغوغاء السوق والشارع نردد ونهلل بأن البيريسترويكا ثورة وترياقها جاهز من مقولات لينين وبقية عمالقة الماركسية فلا يحصل من ذلك ضرر يذكر ولكن اذا تراءى للقائمين باعادة البناء ان علاج الفشل في المزارع التعاونية يكون بالاكثار منها وبالترويج لها ومنع الفلاح من الاستقلال بمزرعته فذلك كارثة لها نتائج ماحقة واكثرها محقا نتيجتان مميتتان أولاهما أن تدارك الفشل بالعلاج الذي كان هو سبب الفشل يؤول الى مضاعفة الفشل وزيادة الخراب ... والنتيجة الاخرى هي ان الدوام على متابعة الطريقة الفاشلة هي في أسلم عواقبها بالنسبة للقائمين باعادة البناء أن يحصل جمود وتحجر جديدان يكون موقع القائمين باعادة البناء فيهما كموقع بريجنيف وسائر أبطال الجمود في حقبة ما بعد الستالينية ، يرددون المفاهيم والشعارات الجوفاء ويتعمون مثل بريجنيف بالسلطة والأبهة . وتحصل الخيبة التي هي أمر من الخيبة الأولى هذا بفرض أن القائمين باعادة البناء أستطاعوا البقاء في مركز القيادة ولكن الأحتمال الغالب أن اناسا من صميم التحجر يرجعون الى السلطة وفي يدهم البرهان الساطع على ان دعاوى التصحيح واعادة البناء وسائل شيطانية اقحمت على دنيا الثورة الأصيلة التي ما جاءت الا لتثبيت « دكتاتورية البروليتاريا » وتنقية الأسلوب الثوري من كل الشوائب البرجوازية والارتدادية المتمثلة في هرآآت الديمقراطية . ولا أذهب الى الاحتمال الآخر وهو قيام الجماهير العريضة بوجه التحجر

الجديد المتولد من اعادة البناء نفسها فذلك شيء قصارى وجوده هو (وجود بالقوة Potential) أما أن يثبت نفسه كعامل حاسم في التغيير فهو احتمال لم يزل بعيدا بعد عملية الطحن والتهرئة التي دامت من سنة ١٩١٧ حتى بدايات البيريسترويكا • أن الفرد الروسي والجمهور الروسي ، في مظهر شديد الوضوح ، ينتظر (سفينة نوح) وطنية تنقذه من الطوفان ، وفقد القدرة على مجرد الأنشغال بأوهام (انقاذ الذات ـ بجهد ذاتي) • مع الاعتذار لما تفضل به الرئيس غورباتشوف في بعض كلامه انه لا توجد سفينة نوح ثانية فقد كان كلامه في وادي السياسة الدولية ومخاطر الأسلحة النووية ••• فالروس وكثير غير الروس في بلدان هذا العالم ينتظرون نوحا أو هم (بانتظار جودو) •

بعد الكلام المقتبس من الكتاب ، والتعليق عليه فيما مضى من سطور يقول الرئيس غورباتشوف في الصفحة ١٤ نفسها ما يلي :

« ان ما سبق أن قلته هو الواقع الفعلي ، والحقيقة الأكيدة ، والنتاج الواضح لعمل أجيال عديدة من شعبنا ومن الواضح أن تقدم بلادنا غدا ممكنا فقط بفضل الثورة • وهو نتاج للثورة • انه ثمرة الأشتراكية ، باعتبارها النظام الأجتماعي الجديد ، ونتيجة الخيار التأريخي لشعبنا • انه يستند الى مآثر آبائنا وأجدادنا وملايين الشعب العامل ـ من العمال والفلاحين والمثقفين ـ الذين اخذوا على عاتقهم منذ سبعين عاما مضت المسؤولية المباشرة عن مستقبل بلادهم » •

هذا الكلام الذى يتفضل به الرئيس غورباتشوف باخلاص شديد هو المنتظر أن يقال ، باخلاص أيضا في مثل موقفه ، ولكننا في سعة من أمرنا فلا مسؤوليات رسمية أو رئاسية أو حزبية أو كونية او شرق اوسطية تشغلنا عن التطلع الى ما وراء الكلمات الجميلة النبيلة من حقائق •

ومهما يكن من شأن تعليقي عليه فلن يكون منه ضرر لأنه صادر بالأصل من محض حبي له وحرصي على نجاحه . واقول من باب التوضيح انه اذا قال شخص بأن الارض التي يقف عليها مزيج من الحديد والخارصين والكاربون فوجدت أنا أنها مزيج من الرمل والفضة والفسفور فلن يحصل من ذلك توهين لموقفه فسيظل منتصبا على العناصر التي اكتشفتها انا مثل ما كان من انتصابه على العناصر التي توهمها هو .

تعليقي على نقاط من الفقرة المنقولة اعلاه وعلى شيء ورد في الفقرة التي قبلها يتركز فيما يلي :

١ – ما جاء في الفقرة التي قبلها من ان الاتحاد السوفيتي اجتاز خلال سبعين سنة تأريخا يعادل قرونا .

٢ – ان تقدم روسيا غدا ممكنا بفضل الثورة فهو نتاجها وثمرة الأشتراكية .

٣ – الأشتراكية كنظام اجتماعي جديد هي الخيار التأريخي لشعوب الاتحاد السوفيتي .

٤ – ان هذا التقدم يستند الى مآثر الآباء والأجداد وملايين الشعب العامل من العمال والفلاحين والمثقفين الذين اخذوا على عاتقهم منذ سبعين سنة المسؤولية المباشرة عن مستقبل بلادهم .

فيما يخص الفقرة الأولى فأنها تتسم بقابلية هائلة للاتساع فلابد من اختصار القول فيها الى أقصى حد ممكن ففيها طامة كبرى لا يدري أحد كيف يفصلها عما حصل في السوفيات كي يسترسل الكلام على شكل مقنع فيما هو تقدم وما هو تأخر ومن الذي قدم ومن الذي أخر ذلك أن حوالي نصف الزمان بين قيام الثورة في ١٩١٧ وبين تأليف الرئيس

غورباتشوف لكتابه « بيريسترويكا » هو فترة الستالينية وفيها حصل ما يمكن أن يقال انه أختزال القرون الى عقود وتسنى للاتحاد السوفيتي أن يكون معادلا لأمريكا في الوزن الدولي وتم بسط الهيمنة الروسية على اوروبا الشرقية بما جعلها حزاما للأمان الروسي وضمانا لدوام الشيوعية ، ولما كان الاجماع شبه منعقد على أن ستالين كان مجرما فلكي يمكن اشراك الشعب السوفيتي والايديولوجية الاشتراكية في أفضال اختزال القرون الى عقود وجب اشراكهما في جرائم ستالين كي يكونا شريكين له فيما هو صالح . أما اذا تفرد ستالين بالاجرام فمن حقه أن يتفرد بفضل أختزال الزمن أيضا لأنه هو الذي اختزل . وليس مقبولا من أحد أن يستعمل مهارته في التأويل والتلاعب بالكلام ليصور الحالة في فترة الستالينية على أن شيطانا جبارا من جبابرة الشر كان مسيطرا على جهاز جبار من جبابرة الخير يقلب بذور الشيطان الى زهور ورياحين والوان قوس القزح فذلك عبث صبياني لا يقوله من جاوز عمر المراهقة . واعتذر من الرئيس غورباتشوف عن كلام تفرضه فداحة المقارنات .

الأختزال الحقيقي لفترات الزمن هو الأختزال اللائق ببراعة فكرة الأختزال : فاليابان اختزلت قرونا عدة في زمن قياسي بلا عنف ولا تسخير ولا تصفيات ولا معسكرات المسخرين المرشحين للزوال التدريجي كما كان جاريا في زمن ستالين وقد قرأت في ذلك وما يماثله أشياء هائلة في اعداد من New Times و Mosco News ومجلات أخرى تصدر في عهد الجلاسنوست . ومن ثمار الأختزال الصحي انه لا يخلق نتائج سلبية هي بنت القهر والاعنات المصاحب للأختزال الجبري ولعل من الجائز أن اقدم مثالا لما يمكن أن يفعله سيطرة الارادة الواحدة على مصير شعب بأسره فقد استطاع هتلر خلال اقل من ست سنين ان يجعل من

المانيا قوة حربية اولى في الدنيا كلها ويجعلها ترسانة للأسلحة ويحيل شعبها الى ما عرفناه من شأنه بما لا حاجة معه الى كلام زائد . ولا نظلم التأريخ أذا قلنا ان هذا الشرير لم يلجأ الى أساليب ستالين في العمل المسخر (حدث التسخير في سنوات الحرب مع الأسرى غير الألمان) والتهجير بالجملة وتعريض ملايين الفلاحين الى الموت ولا تسبب في تدني مستوى المعيشة بل أنه أحدث في كفاحه الشرير ما هو انتعاش . وليس ينهض سببا مزيلا للعجب مما حققه هتلر قول القائلين بأن الامبريالية وقوى الشر وشياطين الأنس زودوا هتلر بادواته السحرية فالواقع هو أن فرنسا كانت في حالة من الذعر الجأتها الى بناء خط ماجينو درءا للخطر الهتلري الماحق ثم لم يفدها ماجينو بشيء ... وسيأتي الكلام لاحقا ، وبالضرورة ، عن فترة (ميونيخ) وابعاث الحرب بعد اتفاقية ستالين وهتلر مباشرة .

والكلام في اختزال الزمن يختلط بالضرورة مع الكلام في الفقرة التي بعدها وهي ان تقدم روسيا غدا ممكنا بفضل الثورة فكلاهما متلازم وموسوم بالميسم الستاليني . ولابد هنا من استعمال منتهى الدقة في التقويم والتثمين ورد الشيء الى أسبابه الحقيقية وقد يكون مما يساعد على انكشاف الحقيقة في التقدم والتأخر ان بلادا كثيرة في اوروبا لا تملك عشر ما تملكه أوطان الدولة السوفيتية من موارد طبيعية تقدمت مدنيات هائلة في الحضارة والعلم والرفاه والديمقراطية وكل ما هو راحة وامان وضمان بلا ثورة ولا عنف ولا قطرة دم ولا حاجة الى تبرير الذات في مقارنة الشر وخنق الحريات وكتم الأنفاس ، فالقول بأن تقدم السوفيت ما كان يمكن ان يقع الا بالوسائل التي استعملها ستالين هو مردود بالبداهة لا لأنه يبرر جرائمه فقط بل لأنه قول يمشي باتجاه معاكس

للحقيقة فالواقع هو أن التقدم الذى حصل في روسيا كان برغم وسائل ستالين لا بفضلها وسينكشف ذلك اكثر فيما يلي من كلام :

أن لنا في القياس المقارن للتقدم الذى يحصل في هذا البلد أو ذاك معيارا لا يخطىء • وفي حالة الثورة التي هي حالة متميزة من كل وجه عن احوال البلدان التي مشت بلا طفرة ولا زعازع يمكن التوصل بسهولة الى ما للثورة وما عليها لأنها مثل فريد محدد لا تختلط هوامشها بهوامش غيرها • فاذا حققت تقدما في مرفق الكهرباء ولم يحصل مثله في بلاد اخرى كان الفضل فيه يعود الى الثورة بلا جدال أما اذا كان تقدم مثله حصل بلا ثورة واراقة دم ومصادرة حريات في بلاد اخرى فلا تكون الثورة حققت شيئا خارقا ولا مألوفا بل انها مدينة فيما حققته بالثمن الباهظ الذي استوفته من دماء الناس وحريتهم وأمنهم وكرامتهم • فاذا كان ما تحقق من تقدم في بلاد اخرى اكثر مما حققته الثورة يكون التقدم في البلد الثائر قد تحقق برغم الثورة لا بفضلها لانه من البديهي ان تقدما اكثر كان يحصل بلا ثورة قياسا من البلدان التي لم تثر • اما فشل المرافق في البلد الثائر فأنه محسوب على الثورة بلا تأويل اذا كانت مرافق مماثلة في البلدان غير الثائرة لم تفشل • واذكر بالمناسبة انى كنت في سنة ١٩٦٦ استمع الى الخطاب السنوى الذى كان يلقيه رئيس بلد ثائر في ذكرى ثورته فسمعته يقول بصراحة مشوبة بنوع من الفخر في صراحته أن هناك ناسا يروجون الشائعات حول وجود أزمة سكن في بلدنا فأقول لهم ان في البلد أزمة سكن فأنا لا أملك عملة صعبة أشتري بها الأسمنت والحديد فكيف أتغلب على الأزمة ؟ فقلت مع نفسي بصوت مسموع : ياسيدى هل نرت حتى تبشرني بعد ١٤ سنة من قيام الثورة بأنه لا يوجد حل لأزمة السكن ؟ ألم يكن من الأسلم أن تترك المجال للازمة كي تنشأ بلا ثورة ؟

مع العلم بانه لم تكن توجد أزمة سكن في ذلك البلد قبل الثورة !!

ارجع الى الموضوع الأصلي فأقول ان الذي حققه ستالين ما كان يمكن ان يحققه الا بالاسلوب اللاانساني الذي اتبعه فانه بعد أن أشاع الأرهاب وأوغل في التصفيات وشكم تأريخ السوفيات فجمع سيور شكائمه في قبضته الحديدية لم تكن قد بقيت باحد قدرة على العطاء المبدع كي تتجمع المهارات في عمل خلاق فكان لابد لستالين من أستعمال أقسى العنف لكي يعمل الذي كان من الممكن أن يعمله شعب غير مسخر في يسر وبشكل طبيعي • ورب قائل يقول انه لم يكن له خيار فيما فعل بسبب جهل الشعب الروسي فاقول له : هل كان مناضلو الصف الأول ورفاق كفاحه في الثورة البلشفية جهلاء حتى يقضي على جلهم ان لم اقل كلهم ؟ ألم يكن غير القتل وسيلة لتحييد الاشخاص ودرء الأذى المحتمل عنهم ؟ اننا لسنا بصدد تحليل نفسية ستالين لندرك ما الذي حمله على اشتهاء تعذيب الرفاق وتصفيتهم فتلك وظيفة علماء النفس ولسنا كذلك مطالبين باكتناه ما كان محتملا ان يحدث لو لم يوجد ستالين او لم يصل الى الهيمنة وان كنا نملك الحق في القول بان شواهد التأريخ القديم والحديث وحكم العقل والمنطق تملي علينا حكمها بتصديق من يرى انه كان في الامكان ان تكون الأمور اصلح والتقدم اكثر والأمان أوفر والعدل ارسخ وكل شيء اجمل واكمل في غياب الدكتاتورية • أما وقد ابت الدكتاتورية الستالينية ان تختفي وأبت ان تكون اقل قسوة فتصرف ستالين في ممارسة طغيانه باكثر مما يبيحه حق الملوك الألهي فقد هبطت الارادة الشعبية الى مستوى الرق والقنانه بل جاوزتها في الهبوط بما جعل الجماهير اكثر رضوخا من العبيد وأطوع منهم في تأليه سيدهم •

ومن مصاديق ما نقوله هنا هو ان الملايين المملينة من مناضلي اليسار على

نطاق العالم عبدت ستالين اكثر من ربع قرن ولم تزل بقيتهم باقية ولها الجرأة في أن تعلن رأيها • ومثال ذلك انى قرأت في بعض أعداد New Times أو Moscow News الصادرة في هذه السنة ردا من مواطن سوفيتي على شخص من المانيا الشرقية برر اعمال ستالين بأن من يعمل اومليت لابد له من كسر البيض فيقول له السوفيتي : هذا الكلام جميل شريطة ألا تكون أنت الاومليت ••• فأقول مع هذا ان الفارق كبير بين كسر البيض وقطع رقبة البرىء •

أنا يا سيدى الرئيس غورباتشوف لست خيالا في آرائى السياسية فأنا فيها واقعي قدر كونى انظر الى الأحداث بعين انسان يفرح ويتألم لأحوال الدنيا بحسب طبائعها فلا اغمض عيني عن ضحية ذهبت حياتها هدرا بلا ضرورة • ومنذ حوالي ثلاثين سنة اقول وأردد انى أرضى من الحاكم بأمره في عالمنا الثالث ان يفعل ما يراه كفيلا بادامة حكمه ومجده ومزاجه فاذا احتاج الى عشر ضحايا للتخويف فليقتل عشرا ولا يقفز الى خمسين • واذا وجد في سجن المناضلين أمانا لنفسه فليسجن بلا تعذيب أو قتل • وليكن دقيقا في تحديد هدفه من القتل والسجن والتشريد وهو سلامته ودوام ربوبيته فلا يقتل رغبة في القتل ولا يسجن غراما بافلاق الناس • وفي تاريخنا الأسطوري حكاية تقول ان أحد الشاهات نبتت لـه بفعل الشيطان حية على كل من كتفيه والحيتان تطلبان الغذاء من مخ شابين في كل يوم •• وهكذا الى نهاية الحكاية التي تنتهي بالثورة عليه في يوم سماه الناس « نوروز » نحتفل به حتى يومنا هذا ونعم ما نفعل •• فأنا اقول لروح ستالين ومن على شاكلته : أذبح في كل يوم شابا أو شابين تدهن بمخهما كتفيك أذا اعوزتك الحيتان ولكن لا تذبح بدل لاثنى عشرين رعاك الله وادام مجدك في الخالدين ••• فاذا اهتديت يابديل

ستالين من حكام العالم الثالث الى عدم جدوى تدهين الكتفين بالمخ الآدمي فادهنه بمخ الدجاج ... فالمجرمون من بني البشر انماط لا تعد من مراتب القسوة والوحشية وكان في بعض القرى بمنطقتي سفاح صغير قبل حوالي ٦٠ - ٧٠ سنة يسرف في القتل الذى لا جدوى منه اسمه (المختار آرى) ولم يزل مذكورا حتى يومنا هذا فسأله احدهم ما الذي يدفعه الى القتل من غير داع فقال:انى التلذذ من رؤية الضحية وهو يلبط بيديه وقدميه حتى تسكن حركته . فلربما كان ستالين واحدا من هؤلاء المفتونين بالامان الذي يتولد من موت الآخرين فالميت لا يضر ... ان ما يتم من الاعمال وفق رغبة متفوقة دون ان يكون للناس رأي فيه يجب ان يحسب له وعليه وفي ذلك فائدة ادبية للناس فهم مهما عزوت اليهم أعمالا بل بطولات لم تقع برغبتهم لا يستفيدون منها شيئا . ولما كانت احداث التأريخ في اغلبها بعيدة من الأنصاف فان نصيب الناس من قبحها يثقل كفتهم بما لا يسر ولقد كتبت منذ أكثر من عشر سنين ما معناه انه لا يمكن القبول باضافة الأشياء الفاضلة فقط الى الجماهير التي لم يكن لها فيها يد أو رغبة فاذا عزى الفضل اليها جزافا فيما هو نافع وجب تجريمها جزافا أيضا فيما هو قبيح وقلت : هل يسوغ ان نحلق نصف لحية التأريخ ونترك نصفها الآخر ؟ والواقع هو انه كثيرا ما تكون عامة الخلق اكثر ميلا الى المشاركة في الأعمال القبيحة التي بها منفعة أو شهوة وأقل ميلا الى العمل النافع الذى لا يعود نفعه اليهم ولكن نفض الطرف عن هذا القدر من تفاوت الميول ونكتفي بفقدان الأرادة للناس في العمل الضار والنافع لكي يخرج من حسابهم الدائن والمدين وهم بهذا غانمون .

ان ما تم انجازه بارادة ستالين في غياب كامل لأرادة الجماهير وبثمن هائل من الدماء والدموع وبالأثر السلبي اللاحق الذي تعاني منه

روسيا حتى هذا اليوم ، كله يعود لحسابه بما فيـــه حيازة السلاح الذري في زمـن قياسي من القصر • ولا يعني ذلك ان اسلوبه في انجاز ما انجزه كان هو الخيار التأريخي الوحيد فلو كانت الأمور تجري وفق أسس متحضرة بروح جماعية منذ اول يوم لوفاة لينين لـكانت النتائج الايجابية أوفر حظا والأساليب الوحشية أندر وجودا ولـكن الاسلوب الذى اتبعه كان ، في ظل طبائعه القاسية هو خياره الوحيد وفيما عدا أشياء قليلة ، من مثل اتفاقه مع هتلر ، فالذي فعله كان من طبعه أن يفعله شأنه فيذلك شأن انسياق الذئب مع غريزته في قتل عشرات الغنم وهو يشبع بربع خروف ، على حين لا يفعل الأسد ذلك لأنه لا يوافق طبيعته •

ولـكن للـكلام في اعمـــال ستالين بقيـة خطيرة لابد من بيانهـا • فالاعمال الكبيرة التي أنجزها في بعض الحقول ليست سمة فريدة أختص بها ستالين فان اى انسان تمكنه الظروف مـــن القبض على مصير أمـــة يستطيع أن ينقل الجبال من مكانها ويرميها في البحر عن طريق تسخير ملايين العمال وما هو ضروري من الأموال وغيرها حتى ان بعض هـــذه الأعمال لا تتم الا بالسخرة لبهاظة الثمن الذي تطلبه وقد يـكون نفعها لا يتكافأ قطعا مع كلفتها فلولا رغبة الفرعون المصري في بناء الهرم بما تيسر له من التحكم من موجودات مصر بشرا وبهيمة وأرضا وثروة لما أمـــكن شعب مصر أن يقيمـه حتى بفرض انه رغب فيه لأن دوام الرغبة عنـــد ملايين الناس والحرص على توفير المال والعمل على مدى عشرين ســـنة بذلك المقياس الهائل شيء خارج عن كل احتمال • فالهرم صنع فرعوني ولا يملك منه شعب مصر الا جانب الشقاء الذي تحمله في بنائه • ولقـــد كتبت يوم ٧-٧-١٩٨٥ في حلقة من مقال نشرته باحدى صحف بغـــداد ضمن أشياء اخرى ما يلى :

« ما ملك العملة المسخرون صرح الهرم الا كما يملك المحكوم بالأعدام حبل مشنقته أو يملك الغريق أمواج لجته . كان عمال الهرم وعبيده يملكون الهرم في حالة واحدة فقط : وهي حالة امتناعهم عن بنائه !! كل صخرة منقورة في بنيان الهرم شارة عبودية لمئة الف من العملة أو يزيدون وقس عليه كل عمل ملموس وتصرف محسوس قام به الناس خلافا لرغبتهم وامتثالا لرغبة المسيطر عليهم لا يعود شيء منه الى حسابهم بل يطرح كله من حسابهم فالجماهير تزداد فقرا وتتناقص قدرا بالأشياء التي اقامتها برغم ارادتها » .

هذا الكلام يصدق في مصر الفرعونية وفي كل شعب تخلى عن ارادته أو فقد ارادته للمسيطر عليه ولربما كان الشعب السوفيتي اضخم مثال مصدق لذلك والأعمال الضخمة التي انجزها ستالين كانت حصيلة هيمنته على الدخل القومي لمئتي مليون بشر يصرف منها ما يشاء ويوجهها حيث يشاء . أما الشعوب المالكة لدخلها القومي فانها لا وقت عندها للتفكير في القنوات الضخمة والسدود الهائلة وليست مستعدة للتخلي عن ٨٠٪ من دخلها لمشاريع قد لايكون لها جدوى أصلا بل تصرف منها ما تشاء حسب مزاجها ولها من كفاءتها الأنتاجية ما تستعين به على المرافق الضرورية والمصالح العامة ومتطلبات الحياة العصرية فهي في الحق تملك ما هو مسجل باسم افرادها وتشارك في ملكية الاشياء العامة بلا تأويل أو افتعال .

أما أن تكون الاشتراكية هي الخيار التأريخي للشعوب السوفيتية فحقيقتها أن الثورة كانت مزيجا من ارادة الجماهير ومن الهزيمة العسكرية التي أذنت بأنهيار القيصرية ويحضرني كلام قاله لينين في بعض كتبه أن نجاح أية ثورة منوط بشرطين :

اولهما أن يكون استمرار الحال بذاته مستحيلا . وثانيهما أن تعجز

الطبقة الحاكمة عن ادامة الحال • فلابد من حدوث أزمة تحقق هـذه المعادلة • وكان كلام لينين محصول ما بعد نجاح ثورة اكتوبر وفيه صورة سلبية تعكس فشل ثورة ١٩٠٥ ••• فلما سيطر البلاشفة آلت ملكية الثورة والأشتراكية الى الحزب الحاكم الذى يمثل في الظـاهر ارادة الجماهير ولكنه تمثيل دائم ومفروض وغير قابل للنقض فالجماهير بعـد وصول الشيوعيين الى الحكم لم تعد تملك خيـار الرفض وهي حقيقة في مستوى البديهية ولها بقايا قوية وحاسمة حتى ما بعد اعلان البيريسترويكا وسيأتي بيان ذلك ••• والواقع هو ان الحزب نفسه تنـازل عن ملكية الثـورة والاشتراكية لستالين تنازلا كليا حتى مماته ولم يقصر الرجل مطلقا فـي تنصيب نفسه علنا وبأصرار وفخر وكيـلا عن الحزب والشعب والتأريخ واللينينية الماركسية وكالة مطلقة دائمة مدى العمر ••• وبعـد ستالين انتقلت ملكية الواقع الروسي الى فئات مـن الهيأة الحاكمة على حسب النفوذ المتاح ••• صحيح ان الشعب في اي بلد يجب ان يكون صـاحب الواقع كله ومـا كانت الديمقراطية الحقيقية الا ترجمة عملية لهذا المبـدأ النظري ولـكن شتان ما بين الواقع والنظري • والملحوظ أن أشـد أنظمة الحكم قسوة وصرامة وانـكارا لحقـوق الشعب في حرية الأختيار هـى اعلاها صوتا في اعلان تقديسها للعدالة والأمان والطلاقة ولم تعدم واحـدة منها مهرجين كبـارا بين الأدباء والفنانين وذوى اللسان الذرب والقلم المبدع والريشة الخلاقة تمجد بركات الديمقراطية في ظل حاميها الـذي لم يـكن الا حرامیها وكم منهم أطال المدح في نعم الشبع الهنىء والـكسوة الناعمة والسكن المريح على حين كانت الناس تموت جوعا وتلبس خرقـا وتنام في الزرائب • ولنا أن نوسع أطار الكلام لأشباع المعنى المقصود أننـا أذا اعتبرنا الشعوب صاحبة التأريخ نـكون قد وجهنا اليها تهمة تدين كل جزء من كيانها وكل ثانية في اعمارها لأنها تكون قد صنعت تأريخا عـدوا

لها وصديقا للظالم وتكون مستحقة للكوارث التي تطحنها لأنها تكون هي التي أوقعتها بنفسها اليست هي صاحبة التأريخ ؟ أنا اعلم ان الشعوب التي لا تملك الخيار فيما يقع بين ظهرانيها لا تعتبر مسؤولة عن الظلم والقبح وصنوف الهراء التي تمارس على يد المستبدين والغاصبين والقتلة ولكنها تأبى المسؤولية الفادحة من جهة اخرى لا يدخلها الباحثون والمنظرون والمؤرخون في حسابات التبرئة والتجريم : أنها مسؤولة مساءلة حقيقية مصحوبة بتنفيذ حكم التجريم فيها حين تتنازل عن حقها في رسم سياسات البلد وتقعد تتفرج كالكمية المهملة على المصائب التي تملأ أديم أرضها • وكفاها تجريما وادانة أنها تتلقى من المذلة والظلم والهوان وسقوط الاعتبار مقدارا هو أضخم وأوجع من سنوات الحبس التي يحكم بها على الحرامي والمزور وقاطع الطريق فهي تقضي كل عمرها الذى تعطلت فيه ارادتها تدفع ثمن جريمتها الكبرى التي هي فقدان الارادة ولا يفيد في جبر الخواطر قولى وقول غيرى أن الشعب المسكين لا ذنب له فيما يجري حوله فقد كفاه ذلا أنه مسكين وكفى بالمسكنة سببا ضخما من أسباب التجريم • فاذا اعجبتنا أنفسنا نحن الكتاب والمنظرين في براعة التخريجات التي نصوغ بها براءة الشعب المسكين فقد اتضحت الحقيقة الكبرى المتمثلة في تجرع هذا الشعب المسكين لصنوف الذل والنكاية لتهدم الأساس الملفق الذي اقمنا عليه اعجابنا بحذق التلفيق الذى مارسناه في التبرئة الفارغة • اذا كانت غفلة دقيقة واحدة من حارس للكنز كافية كي يسطو الحرامي عليه افلا تكفي عشرات السنين ومئاتها من نومة العافية لمئات الملايين من البشر لتعلمنا منطقا تعلمناه من نومة الحارس ؟ وهل يأخذ جرأة على تبرأة الحارس بذريعة النوم ؟ كان المفروض والمنتظر والواجب ألا ينام فلما نام نقد طار الكنز الى حوزة الحرامي ، والعوض في يوم يستعاد فيه الكنز !! أنا أفهم ياسيادة الرئيس غورباتشوف أن الواقع اعقد

وأصعب واعصى كثيرا جدا جدا من أن يراض هكذا بسهولة لينهض النائم من غفلته وينسلخ من سيور عبوديته ، حتى ان نظرية الكفاح الطبقي لم تكن قط متحققة في احقاب التأريخ على النحو الذي صيغت به على أنها حركة متصلة عبر الزمن فانه باستثناء حالات نادرة تناثرت خلال القرون والأوطان متباعدة بعضها عن بعض حتى لا يحس بعضها ببعض ، باستثناء هذه الحالات الأندر من النادر لم يكن شيء من الكفاح المندرج تحت مفهوم « الكفاح الطبقي » الا ما كان منه متمثلا في « محاولة البقاء » التي كانت تتم غالبا وغالبا جدا في صيغة الجهد الفردي • فالكفاح الطبقي والكفاح القومي والكفاح العالمي صيغ متميزة تتطلب مشاركة عامة من الطبقة أو الشعب أو كل الشعوب بوعي واصرار لتحقيق الغاية المفهومة من كل صيغة ، ولا ادخل هنا في متاهاتها رغم اتصالها الوثيق بأغلب ما ورد في كتابك الخطير • فالكفاح الفردي من شخص أو أسرة هو قدر الأنسان لكي يعيش لا يحتاج معلما ولا يتوقف على كفاح فرد آخر بل قد يتصادم معه في التنافس على لقمة العيش • وفي القديم حتى أوقات أدركتها كان أغلب التنافس يقع بين أفراد من الطبقة الواحدة فلم ينافس الحمال قط تاجرا أو مالكا بل كان حمال مثله هو منافسه • والبقال ينافس البقال ولا ينافس العطار وهكذا • ومازالت هذه الصيغة سائدة الا حيث كان التطور الحضاري المتقدم كفل عدم التصادم ببدائل من ضمانات العيش تحد من الاحتكاك والمهارشة وحديث ذلك يطول • وتبدلت الأحوال في العصور الحديثة وكان للماركسية دور هائل في تنبيه الحس الطبقي ظهر بصور متعددة متفاوتة الى حد التناقض من مجتمع الى مجتمع وكان من نتائجها مثلا شحذ الحس الطبقي في البلدان المتأخرة انتج فقط بغض الفقير للموفور ولم يستطع منع التنافس بين الكادحين • والنقابات بذلت بعض الجهد في هذا الميدان ولكنه جهد على قصور شديد وفجاجة مؤسية

يمارسه جهلة غارقون في العتمة ... ان الشعوب التي تفتقد ضمانات حقوق الأفراد لا يسليها الأعتراف لها على الورق بأنها مالكة لأمرها فقد كفى ان الفرد فيها لا يملك ذاته او حريته وان النفس الذى يردده هو بمسامحة من أجهزة الامن والهيمنة فكيف يملك تأريخه وهو لا يملك ذاته ؟ ولا يعدو شأن الفرد السوفيتى على عهد ستالين وما أعقبه من عهود التحجر شأن الفرد الفاقد لذاته ويعتبر الحزب نفسه امتدادا للفرد في فقد الارادة فلم يكن الا حلقة وصل بين القمة والقاعدة لتنفيذ الأوامر مع تهيؤ فرص لا بأس بها للاثراء مكافأة له على خدماته . كل ذلك على حساب الجماهير التى لم تكن لها أرادة في أية صورة من الصور حتى بدأت أنت واخوانك المؤمنون معك بوجوب التصحيح في صيغة البيريسترويكا فشهدنا معها بدايات تمتع الأفراد من القواعد بممارسة فرديتها . والبيريسترويكا تطرح اليوم ضمن ما تطرح من المسائل والمشاكل قضية خطيرة هي هل أن الأشتراكية هي الخيار التأريخي للشعوب السوفيتية ام هى خيار قدمه اليه وفرضه عليه اصحاب السلطة في قمة الهرم ؟ هل تستطيع الجماهير ان تقدم حلولا من اختراعها أم يطلب منها قبول حلول اهتدي اليها أصحاب فكرة البيريسترويكا ؟ ها هنا موضع أمتحان أساسى لمدى عمق البيريسترويكا وتغلغلها في اعادة صياغة الشخصية للفرد السوفيتي . والذي المسه من رغبة الناس السوفيت في آرائهم المنشورة بالصحف الروسية التى قرأتها في طبعتها الانجليزية هى نزوعهم الى التمتع بكامل الحرية لتقرير ما هو مريح بنظرهم فلقد قرأت لأحدهم رأيا صرح فيه بأنه لا أمل في نجاح البيريسترويكا نفسها اذا لم تتحقق شروط ثلاثة : ١ ـ الغاء احتكار الدولة للاقتصاد ٢ ـ اعادة السوق القديمة التى كانت شائعة قبل الثورة ٣ ـ تمكين العامل وغيره من بيع جهده بكامل حريته ... وقرأت لآخرين اراء مماثلة بل اكثر الحاحا على

وجوب منح الناس ما هو حقهم ويصرون على وجـوب كشف الحقائق والأحداث المعتم عليها منـذ أيام ستالين ويأتون بالمقارنة بين ما هو موجود عندهم وما هو عند غيرهم من الشعوب المتقدمة حتى ان بعضهم قـد يبالغ ويقول أن نصيب الفرد السوفيتي من السكن هو اربعـة امتار مربعة على حين يملك الفرد الامريكي غرفة كاملة .. وهكذا حتى اجـد رئيس المحكمة العليا السوفيتية في احد اعداد New Times يقول عن النظـام القضائي السوفيتي امورا لم اكن اتصورها أبدا . وأجد فلاديمير لوميكو يقتبس في عدد فبراير لمجلة International Affairs ص ٧٥ كلاما لسيادتك قلته في الاجتماع ٤٣ للامم المتحدة نصـه في الانجليزية ما يلي :

We are deeply absorbed in the building a socialist rule - of - law - State .

كأنكم تعيشون حتى هذا اليوم في دولة غير مظللة بالقانون . فكيف يسوغ الظن بأن الشعوب السوفيتية اختارت ان تكون انسانية افرادهـا وجماعاتها غير محمية بالقانون ؟ أن أنعدام او ضعف النظام القانوني في اى بلد هو امتياز تتطلبه مصلحة القوة المسيطرة ضد الرعية وليس لـه تفسير آخر ولا ينتظر منـه نتيجـة الا تشديد قبضة الحاكم وخضوع الناس لرغبته . واعتقد ان اولى واجبات البيريسترويكا هى نقل هـذا الامتياز من الحاكمين الى سواد الشعب وحتى لا تكون مبالغين فالحد الوسط هو حماية حقوق الجماهير بكفالات قانونية فعالة ورسم حـدود واضحة لمسؤوليات الحاكم وسلطاته ولا يفيد ذلك الا بفصل القضاء من السلطة التنفيذية فصلا كاملا واخضاع المجتمع بحكامه ومحكوميه الى الاجراآت القانونية والأصولية التى يتولاها القضاء بهيكله المتكامل من ادنى درجـة الى اعلاها مقترنا بنظام دفاعي متمثل في نقابة للمحامين كاملة الاسـتقلال

والكفاية ... ولا ارى حاجة الى استرسال اكثر .

الفقرة الرابعة اعلاه التى تنص على « ... ملايين الشعب العامل من العمال والفلاحين والمثقفين ... » واحدة من الشعارات التي شاعت مع شيوع الكفاح الشيوعي الأممي واجتهدت في حفر أخاديد عميقة بين الطبقات أريد لها ألا تكون قابلة للردم وبناء جسور التواصل فوقها أسياقا مع الوهم الذي داعب آمال الحالمين من حملة الشعارات الأممية في الوصول الى مجتمع لا تفاوت بين ابنائه عن سبيل جعله لا طبقيا اى أقامته من البروليتاريا فقط . والحق ان اضافة كلمة « المثقفين » الى العمال والفلاحين جاءت أصلا من باب تهريب مادة محرمة الى خطيرة « الحلال » لأن الضرورة قضت بأستعمال الثقافة والعلم في تمشية امور المجتمع وبغيرهما تتعطل المكينة عن العمل . ويزيد من صفة «التهريب» لهذه الكلمة وضوحا أنها تعلن ان العمال والفلاحين ليسوا مثقفين أى أنهم غير مؤهلين للنهوض بمهام التوجيه والادارة والتنظيم و « علمنة » الأشياء وعاجزون عن تغذية المجتمع بالعلم والتكنيك والفنون والمهارات . وبغير هذا « التهريب » للحرام الى حظيرة الحلال كان يتحتم سد أبواب المدارس والكليات والجامعات والمعاهد والرجوع بالمجتمع القهقرى الى حياة الكهوف وهل يتصور عاقل أن يكون فلاح أو عامل قائد طيارة أو عالم ذرة أو مايسترو في سيمفونية أو استاذا في جامعة او مهندسا لسدنيبر ؟ فالمثقفون هم بالضرورة من البرجوازية من خارج مفهوم « البروليتاريا » بشكل مطلق وهم لب لباب الحضارة والعلم والتكنولوجيا بشكل مطلق أيضا . فما أمر المفارقة في تسمية الثورة بالبروليتارية ثم لا يمكن انبعاثها أولا ولا ادامتها ثانيا ولا تقديمها الى امام ثالثا الا بأناس هم من حيث الانتماء الطبقي خصوم البروليتاريا بحسب « التحليل الطبقي » للمجتمع ؟

هذه التجزئة المفهومة من تعداد الفئات الثورية الى عمال وفلاحين ومثقفين لا تبقى اليها حاجة بعد نجاح الثورة لأنها تكون قد وصلت الى الحكم وعند ذلك لا ضرورة قطعا للشعارات الموحية باختلاف الأنتماء الطبقي او الاجتماعي فالتذكير بأن الفئة الفلانية برجوازية والفلانية بروليتارية مفيد فقط لزيادة النار اتقادا وقت الغليان الثوري شحذا لهمم « المسحوقين » في سرعة الوصول الى الحكم بالقضاء على غير المسحوقين • فالمنطق المحض والمنطق العملي يقتضي أن يقتصر على كلمة « الشعب » فقط في ظل دولة « البروليتاريا » • في بعض مواضع كتابك وفي صدد معالجة الذعر النووي تقول بحق انه لا داعي للنبش على نوعية الحكم في أقطار العالم فنحن جميعا سكان كوكب واحد نروم حمايته من الهلاك فاذا كان هدف سلامة « الارض » يستوجب المساواة بين أنظمة مختلفة في حقيقتها فكيف يسوغ تذكير الناس باختلاف انتماآتهم في دولة تدعى انها لا طبقية ؟ انى لا أقيم كبير وزن لرفع هذا الشعار التجزيئي في دولة السوفيات الا من زاوية تناقضه مع ظاهر الادعاء بأن الناس متساوون جميعا في مجتمع اللاطبقات • بل ربما كان ترديده يوافق احدى رغباتي في أن أجد من الأنتماآت بالدولة البروليتارية الأولى دليلا قويا على أن وجود تعدد الأنتماء أمر مفروغ منه وضرورة من ضرورات المجتمع بدليل بقائه مذكورا في بعض شعارات السوفيت بعد سبعين سنة من قيام دولتهم انما الذي أحسب حسابه هو أن المندفعين اليساريين في سياسات العالم الثالث يزيدون في تمسكهم بتأجيج الحرب الطبقية حين يرون الدولة السوفيتية تمنح حق الوجود لهذه الانتماآت الثلاث فقط ، عمال وفلاحين ومثقفين فيستمر دوام الحلقة المفرغة من دوران الكفاح السياسي في العالم الثالث حول نفسه من حيث انه لا أمل في نهوضه من كبوته حتى يتراص صفوف مناضليه

بحذف أسباب الخلاف الداخلي من مناهجهم ومنها التجزئة الطبقية ولكن لا يتخلى الشيوعي عن اسلوبه التجزيئي حتى يقضي على الطبقات ومثليها من المناضلين المنتمين اليها بأستثناء البروليتاريا ..

ياسيدى لقد ظهر بالتجربة العملية منذ ظهور الدولة السوفيتية وكان ثابتا في كل منطق سليم قبل ظهورها أن تركز السلطة والمال في يد الدولة أخطر على حريات الناس وكراماتهم ومصائرهم من توزع المال على رعايا الدولة مع تحديد قدرة السلطات لممارسة الهيمنة والتوجيه بالقوانين المانعة من التعنت والغطرسة من جهة وتكبير دور المواطنين في الدفاع عن انفسهم من السلطة بالتوسع في منحهم حقوق النقد والأعتراض والمظاهرة والأضراب وما الى ذلك . وليس منتظرا أن يصبح المال بذاته مصدر خطر قائم لا علاج له فالضرائب المتصاعدة وقوانين العمل الرشيدة وتوفر وسائل التعبير عن الذات لكل الناس بالاضافة الى الرشد السياسى المتولد من نظام تعدد الاحزاب كفيلة وفوق الكفاية لدرء خطر القوة المتولدة من المال في يد الافراد . لقد جربت بنفسي ، وكنت مواطنا في بلد مرتبط بالانجليز عن طريق معاهدة قبل ثورة تموز ١٩٥٨ ان الوزن السياسى للنائب المعارض أضخم بمراحل من وزن اكبر الأثرياء في البلد فماذا يفعل المال بالسياسة في بلد كالترويج أو بلجيكا أو جيكوسلوفاكيا لقد برع متطرفو اليسار في ترويع الجماهير من « رأس المال » في يد الافراد مقترنا بالالحاح المتوالي على تشويه ما سموه بالاستغلال حتى أنسوها ان حصر المال في يد الدولة واناطة الحكم المنزه عن النقد بها وتفليس الافراد من أية ضمانة معيشة مستقلة عن اللقمة التي تتفضل بها الدولة عليهم أخطر مليون مرة من أي سوء قد ينشأ من حرية التملك في بلد ديمقراطي ! أما في البلد الدكتاتورى المحتفظ

بنظام التملك الفردي فان الغني والفقير والجاهل والعالم كلهم سواء من منظور « انعدام الوزن » الذي يعيشونه • فالخطر ياسيدي لا يأتي من المال نفسه لكنه يأتي من فقدان الضمانات الديمقراطية الحقيقية التي يتم الاجهاز عليها أما جهرة وأما بالتحايل عليها والالتفاف حولها •••• ان الاختناق الذى يستشرى خطره من البيروقراطية سواء أكانت في روسيا أم في روديسيا أنكى بالناس وأقسى عليهم من ترك سميث وغونزاليس وبوبولوف يجهد في توفير رأس مال يستغله في مرفق منتج خاضع للرقابة والضريبة وقوانين العمل وضمانات العمال • ثم ان قتل الحافز الفردي الذى كان محور التطور بدء بالأحياء ذوات الخلية الواحدة وانتهاء الى الانسان الذي هو معجزة الكون المحسوس لهو بمثابة ثلم ذؤابة الرمح وسن القلم يستحيلان بعده الى عصا وقصب وما كان افتراض أصلحية الحافز الجماعي في الاشتراكية المنظمة بالقوة الا غفلة كبيرة من المنظرين الاوائل فيها من الطوبائية مقدار ضخم يغطي مرات ومرات على ما فيها من واقعية ثم هى لا تقف عند السلبية المحايدة في الطوبائية ولكنها تدعو من أول خطوة الى اخضاع الوجود وتسترسل مع منطقها وطبيعتها الى ما شهدناه في مسارها التأريخي من دماء أريقت وحريات منعت وصنوف من القهر فرضت وأرومات أتيه اقتلعت وشردت ••• حتى وجدنا منذ حوالي عشرة أيام أو خمسة عشر يوما من يومي هذا (١٦-٦-١٩٨٩) صين الشعب والثورة تقتل الوف الطلبة العزل في سوح بكين • وهذا بعض صور الترجمة العملية لشعار العمال والفلاحين والمثقفين ولا يمكن حتى في الوهم أن يحصل شيء مماثل في اى بلد به ظل للديمقراطية البرجوازية على ما تسميه الاشتراكية الماركسية « الاستغلال وقهر الطبقات ومص الدماء •• » قلت ان افتراض الاصلحية في الحافز الجماعي على الحافز الفردي كان غفلة وهي أخف شيء يمكن وصف هذا الافتراض به

والا فهي جهل كثيف بطبائع البشر وطبائع البقر وطبائع الاشياء أيضا فلم تدم الحياة في الاحياء الا بفضل هذا الحافز ولم يحصل فقس البيض الا بهذا الحافز ولم يتم بناء ولا زرع ولا حلب ولا اكتشاف النجوم والقطبين واعماق البحار والنزول على سطح القمر الا بهذا الحافز .

ان عملية بسيطة في بعض اعضاء الرجل أو المرأة قد تحيله أو تحيلها الى كائن شبه مخدرو ان عملية اخرى تسلبه الرغبة في التملك تنزل به عن منزلته الى منزلة بين البشر والبهيمة : الحافز الفردى في بعض صوره ، كحب الحياة والدوام ، هو قوام الكائن الحي بشرا وبهيمة وبغيره يضمحل ويندثر . والحافز الفردي في أطوار من عمر الانسانية منذ فجرها الاول هو قوام كيانه في تلك الاطوار كلها . وهو حافز قابل للنمو والتطور وخاضع للتأقلم مع تغير الاحوال حتى يوم ترتقى فيه المشاعر بارتقاء مستوى الحضارة واختفاء الحاجة الى حافز التملك الفردي نتيجة ميلاد أحوال يرتبط دوامها وتطورها بالحافز الجماعي بديلا عن الحافز الفردي ، عندئذ لا يبقى داع لوجود المنظرين والاحزاب وترديد الشعارات من أساسها ، وذلك يوم بعيد عن عامة الشعوب وهو بالبداهة بعيد عن مجتمع عبد ستالين ثلاثين سنة واستكان لسنوات التحجر دهرا ولم يزل تعثر خطاه في شباك البيروقراطيين بل هو يفتقد قانونا يحتمى به . اقول بالمناسبة ان امضى سيف يمكن تجريده في وجه البيروقراطية والمستفيدين من التحجر هو سيف التملك الفردى والحافز الفردى والتصرف بالذات حسب رغبة الذات في حدود قانون متحضر فالرغبات المكبوتة من سبعين سنة داخل قمقم من التوجيهات والتنظيرات والشعارات وانتظار الوحي النازل من اعلى خليقة أن تجعل من المكبوتين في حالة المارد داخل القمقم المختوم فاذا رفعت ختمه باطلاق رغبة الراغبين في التملك والبناء والتعامل والسفر تدفقت فيوضهم مكتسحة كل

البيروقراطيين والمنظرين وذوى انسجة العنكبوت من الفلسفات والايديولوجيات والطبقات والاستغلالات وحظر الرغبات وكبح النزوعات .. أقول هذا وأنا ارجو الا يحدث هذا الفيضان لما يحتمل ان يحدثه من أثر سلبي يظهر في وقت قريب ولكنى أقوله من قبيل رد الفعل ضد الشعارات الداعية الى انشغال ابناء الشعب الواحد بعضهم ببعض في شجار أبدي سرمدي باسم الكفاح الطبقي الذى لا يقبل هدنة أو صلحا على حين تشتد الحاجة يوما بعد يوم الى ايجاد صيغ عمل تعالج الخلافات بالتفاهم كما يفعل المجتمع السويدي والسويسري وغيرهما من متحضري هذه الدنيا حيث تم خلاصهم من المنظرين والهاتفين والمثيرين والبيروقراطيين أولا ثم استراحوا ..

سيدى الرئيس غورباتشوف ، أنا لا ادعو الى هجر الاشتراكية بالقوة فاذا أعجب شعبا أن يستمر في الاشتراكية التى فرضت عليه بالقهر فتلك رغبة محترمة ما دامت تلقائية انبعاثية رضائية وليست عن سبيل الغاء ارادة الناس . اقول هذا انسياقا مع منطق احترام ارادة الجماهير رغم علمي بأنه على قدر ضمور الحافز الفردى في مجتمعات هذا العصر وتقلص دائرة خيار الافراد في العمل والتصرف يحصل التخلف من جهة والبيروقراطية من جهة اخرى فانه من قبيل البديهية ، حين يتخلى الناس عن الحافز الفردى من حب التملك وحرية التصرف واختيار طريقة الحياة ونبذ استعمال وسائل الاعلام والتعبير عن الذات ، بديهي أن تتولى طغمة الحكام هذه الخيارات نيابة عن الناس والا تجمد الواقع بالمرة ومن هنا تأتي حتمية البيروقراطية فليس من المتصور ان يتنازل الناس عن أراداتهم ثم يقيموا أنفسهم رقباء على الحكام في تصرفهم بالدنيا فذلك خيال من الوهم فان الحكام في كل البلدان التي لم تستكمل

شروط الدمقراطية الصحيحة الحقيقية يمارسون البيروقراطية رغم وجود القوانين التي تحترم الحافز الفردى وتصون الملكية وتقر حق الافراد في التصرف الحر فكيف تكون الحال اذا كانت الاحوال القانونية والسياسية في بلد ما هي التي تقتل هذه الاحاسيس ؟ ان أسس الحضارة النبيلة كلها بدء بالحرية في اختيار نوع اللحم للغذاء والعشاء حتى أختيار نظام الحكم في كل وجهاته وأصعدته ومناحيه مرورا بحرية الرأي والعقيدة وطريقة تذوق الحياة كلها عناصر على غاية الهشاشة والشفافية تحتاج ضمانات وصيانات قوية ضد العبث بها وتشويهها فلكي يكون وزير من الوزراء في بلد ما مضطرا لسماع رأي الناس واحترام رغبتهم لابد من وجود اجهزة كاملة القدرة على ضبط تصرف المسؤول من صحافة حرة وقضاء حر وتشريع حر وايمان راسخ عند الناس بأنهم أصحاب الشأن الحقيقيون في وطنهم وان الوزير ورئيسه ورئيس رئيسه مأجورون من موارد الثروة القومية لتمشية المصلحة العامة على حسب احكام القوانين والانظمة والعرف العام اى ان تكون اجهزة الرقابة والمساءلة مقامة ضد العبث بالحقوق وليس لتخويف المواطنين في الدرجة الاولى حتى العاشرة ومع ذلك كله تبقى فجوات وقنوات يمارس من خلالها الموظف الكبير حيلة الالتفاف حول القانون وحول الناس وحول الوطن • فحتى يكون الجندي العادي في مقام يستطيع فيه ان يحمى كرامته في مواجهة قائد الفرقة ينبغي أن تكون الاحوال وصلت درجة مشاركة الذئب والحمل في معين واحد أما أن يستطيع الجندي التصدي لغطرسة او مخالفة قانونية يمارسها آمر الفوج فينبغي ان يكون قد تم الاعتراف للحمل بسوق الذئب فالحذر لا ينبعث أبدا من مبدأ حرية الناس في الاثراء عن سبيل الاعتراف بالتملك والحافز الفردي والضمانات الديمقراطية • أما أن تكون أمريكا بعبعا متجسدا من شرور الثروات الفردية حتى انه تم

تصويرها على انها آلة الشر في هـذه الدنيـا فحكايتها بسيطة جدا ولن تحلو لمذاق المؤمن بوجوب تصفية الطبقات :

سيدى الرئيس غورباتشوف : من أكثر الاشياء خداعا للنظر فـي موازين المقارنة بين الاشتراكية الماركسية وما يسمى بالبرجوازية هو اتخاذ روسيا السوفيتية والولايات المتحدة مثالا للمقارنة وذلك لاسباب كثيرة :ـ

اولا ـ ان روسيا أحسن مثال مشجع يمكن انتقاؤه من بين الدول الشيوعية وليست امريكا خير مثال في العالم البرجوازى •

ثانيا ـ كل اساءة تصدر من امريكا تكون خاضعة للنقد من اصدقائها ومن اهلها الذين لا يوافقهم العمل المنتقد وتكون خاضعة للتكبير والمبالغة من قبل شعوب العالم الثالث الذين لهم مشاكل مع الغرب وتكبر أيضا من قبل المعسكر الاشتراكي بالبداهة ولكن اعمال روسيا السوفيتية لم تكن قابلة للنقد من الدول الشيوعية أو من ابناء روسيا ويتم التغاضى عنها بل ربما يوجد لها تبرير في العالم الثالث •

ثالثا ـ يتخذ المنتقدون الماركسيون من اعمال امريكا ذريعة للتدليل على ان البرجوازية شـر كلهـا ولا يتطوعون بالتفريق بين سويسرة والولايات المتحدة فالضمير السياسى العالمي لم يزل في سبات عميق تجـاه الانصاف الخالي من المصلحة الذاتية •

رابعا ـ ان امريكا دولة عظمى يعادلها الاتحاد السوفيتى من المعسكر المقابل وكلتا الدولتين قامت بأعمال لا ترضي أحدا ليس لانهما دولتان سيئتان دون العالمين ولكن لأن «العظمة» في الدول تعنى مصالح واسعة متشابكة تتداخ معها انطقة معايير الصلاح في التعامل العالمي اى ان اشياء فاسدة تدخل في نطاق الصالح ، علما بأن كثيرا من الدول الصغرى في هذا

العالم تقوم بفظائع يقشعر منها البدن سواء منها ما كان في الشؤون الداخلية أو في التعامل مع الخارج . ولابد هنا من ذكر حقيقة مهمة وهي ان دولة نشأت من الثورة تجد جرأة اضافية في عمل ما تريد لسببين أساسيين على أقل تقدير ، الاول هو انه لا يوجد في الداخل رأى عام منفصل عن رأي الثورة فهي تفعل ما تفعل باسقاط كامل لرأي شعبها حيث لا يوجد رأى ولا توجد وسيلة للتعبير عنه . وثاني السببين هو ان الثورة التي قامت ابتداء بوجه نظام كان قائما وقانون كان سائدا واستباحت دماء في التخريجات الايديولوجية والسياسية تشعر شعورا قويا جدا بأن ما تفعله بعد الثورة مع سائر الدنيا هو في نصاعة وعدالة ما فعلته في الداخل مع الناس فاذا كانت تجد المبرر لاى عمل وحشي تلجأ اليه في داخل دارها فهي اكثر طمأنينة ورضا عن الذات فيما تفعله بالمجر او جيكوسلوفاكيا أو تتدخل في افغانستان أو ما يجري في اريتريا وأكناف العالم .. وجئت انت ياسيدى أول واحد من الشيوعيين الكبار يتخلى عن هذه العقيدة المجاملة مع الذات وسحبت جيوشك من افغانستان وتركت «التضامن» في بولونيا يكسب الجولة وأشياء اخرى كثيرة قمت بها جعلت منك مناط الرجاء في استقامة السياسة الدولية على طريق خلق بالمتحضرين ومهدت للكفاح الانساني الخروج من قوقعة «الطبقية» وفعلت .. وفعلت .. ما لا يحصى من الاعمال الصالحة . وبقي مع ذلك حكم منطق «الدولة» العظمى في موضوع جدار برلين الذي لا يحمي اهل الدار من الحرامية فالحرامية يدخلون ويخرجون ولكنه يحصر اهل الدار ضمن حيطانها المنطبقة عليهم ولن تسمح لألمانيا أن تتوحد ولن تعيد الى المانيا الشرقية أرضا ضمت الى بولونيا في تسوية « ستالينية » بعد الحرب اخذت من بولونيا أرضا الى روسيا كما اعتقد فها هنا منطق الدولة الكبيرة التي تمسك بقواعد

سلامتها وستتمسك بها في نزع السلاح وفي اية معاملة كبيرة ذات مساس بتوازن القوى . ان أمريكا لا تملك في محيط مناطق نفوذها أيا من هذه التخريجات فهى تعيش بقباحاتها في العراء مع انها لا تحتل ارض غيرها وليست بها أية صفة من صفات الدولة المستعمرة ولا تملك سيبريا أو آسيا الوسطى او دول البلطيق وتحتاط كثيرا حتى تبدو اعمالها السخيفة مقبولة في نظر شعبها على الأقل فلا تفلح في ذلك وتتعرض لأشد التقريع من صحافتها ويكاد يكون الكونجرس طرفا سياسيا التزم على نفسه نقض ما يبنيه رئيس الجمهورية فكل عوراتها مكشوفة . حتى تجاربها الفلكية تجري على ملأ الناس ، وانتكاساتها في اى باب يكون هى حديث العالم كله . ان دورة الأربع سنين للرئاسة محنة في حد ذاتها فالمرشح يكاد يستهلك نصف ذاته في مقدمات الترشيح والتهيؤ للمعركة والدخول في المنازلة في شهور مضنية على نطاق الولايات كلها ويستهلك النصف الثاني في خوف دائم من نزاعات الأجنحة المختلفة للادارة ومن شبح الكونغرس فلا يكاد يتنفس الصعداء من صعوبات السنتين الأولين حتى يبدأ هم زوال الدورة الرئاسية .. وهكذا !

ثم ان المجتمع الامريكى ضخم هائل ومخيف فهو نفسه بعبع الرئاسة وكل الأجنحة السياسية والادارية .. والكلام يطول ويطول فاغادره لأقول أنه لولا ضوابط المصالح الكبرى التى تفرض الأتزان على تصرفات الدولتين العظميين لكان مما يجاوز طاقة الأحتمال ان يحتمل رئيس سوفيتى او امريكى كلاما جارحا وتحديا صارخا من رؤساء دول لا تعادل سكان واحدة من مدنهما فلكي تكون المقارنة عادلة بين الأقتصاد المحتكر للدولة والاقتصاد المفتوح للناس وجب النظر الى احوال الدول الوسطى وما دون الوسطى في المعسكرين : (هولنده ـ بلغاريا) ،

(رومانيا ـ سويسره) ، (اوكرانيا ـ النمسا) ، (المجر ـ دانيمارك) وأن توضع المصنوعات والمزروعات في النظامين تحت النظر ليكون الفرق غير خداع ـ واترك الكلام في الدمقراطية فهو شيء لا مجال فيه للمقارنة .

بعد الفقرات السابقة من الكتاب وما مر من التعليق عليها يأتي في أوائل الصفحة ١٥ منه استعراض ظاهرة الأخفاق الاقتصادي والركود وتراكم المشاكل التي لا حل لها وتباطؤ النمو .. وأنقل هنا سطورا من اواسط الصفحة ١٦ تتضمن فقرة هامة تطلب التعليق عليها بأصرار اد يقول : « لقد انفقنا وما نزال ننفق في الحقيقة ، مواد خام وطاقة وموارد اخرى بالنسبة للوحدة من الناتج اكثر بكثير مما تنفقه البلدان المتطورة الأخرى . ان ثروة بلادنا بمفهوم الموارد الطبيعية وقوة العمل قد أفسدتنا » .

الذى أراه عند التركيز على ما ورد في الفقرة اعلاه دون الرجوع الى تأثير انعدام الحافز الفردي عند العامل وانعدام اللهفة عند المشرفين على نجاح المشروع في الأقتصاد الأشتراكي المفروض من أعلى ، الذى اراه هو توضيح معنيين تضمنتهما الفقرة لهما خطورة بالغة . المعنى الأول هو المفهوم من زيادة الأنفاق زيادة كبيرة على انتاج السلعة في روسيا بقياسها الى كلفة السلعة نفسها في البلدان المتطورة الأخرى (كلمة «اخرى» هنا فيها مجاملة للاقتصاد السوفيتي لأن الدولة السوفيتية ما تطورت بمستوى الدول المتقدمة الا في مستويات القوة الحربية وغزو الفضاء) . هذه الظاهرة لا خفاء في اسبابها فانه بقدر ما يتمتع مجتمع ما بالطلاقة في تصرفاته وخياراته يكون ايمانه راسخا بما يعمل فيكون حماسه بمقدار شعوره الأصيل انه يخدم نفسه ومثله واحلامه فهو يكون في القياس بمقام الأم التي تسهر على

حشاشة روحها في حرصها على سلامتها وراحتها اذا وضعت هي في كفة ووضعت الحاضنة في الكفة الأخرى .

والمعنى الآخر هو ان تكون الثروة الطبيعية وقوة العمل للبلدان الاشتراكية قد أفسدت تلك البلدان . انى اعتقد ان كثرة الموارد في حد ذاتها لا تدفع الناس الى الفساد والبطر والدلال فقد يموت الشخص الذى يعيش مع الاسماك في حوض واحد اذا لم يجد آلة يصيد بها وجهازا للطبخ .. ان الذى بعث في اوصال الاقتصاد الروسى ما هو «فاسد» وسط موارد طبيعية لا مثيل لها في العالم هو ان الطاقة الانتاجية للعامل والموجه والمهندس والمعمل ومستوى التكنيك والتنظيم اقل بكثير من ان تستوعب في التصنيع خامات كالتلول المتراكمة فانه مهما يكن ماء الترعة وفيرا فليس في استطاعة المضخة الصغيرة الا امتصاص مقدار قليل منه يتناسب مع قدرتها على الاستيعاب ويتبدد الماء الزائد في المسايل على جوانبها او يركد في البحيرة . ان الفساد الذى يأتي من الوفرة هو اشبه شيء بالمال الذى يتكوم في يد وريث شخص غني فيتصرف به على هواه بطرا وتعاظما مع التكاسل في احضان النعيم أو هو ناشيء ، مثلا ، في حالة معمارى قليل الخبرة تزيغ عينه وتتيه يده في مقادير الاسمنت والطابوق واعداد العمال والاجهزة المستعملة في البناء فيقيم حائطا مائلا الى الانهدام باحجار ناشة وعيوب بارزة . لو كان في الامكان تخويل اليابانيين التصرف بالموارد الطبيعية السوفيتية لحساب السوفييت انفسهم لقلبوا هذا الفساد الى جنات الخلد فقد رأيناهم يأتون بالعمال في بلادهم لينجزوا التزاماتهم في بلادنا في مواعيدها وبغير هذا التدبير لافلسوا هم ولم تقم قائمة لأى من المشاريع التي التزموها ولتقل نظريات فائض القيمة والأستغلال ومص الدماء ما شاءت ان تقول . وانه لمن المؤسيات المبكيات ان تكون هذه النظريات التي

راجت على نطاق العالمين لم تدخل في حساباتها الاساسية عنصر العامل البشرى واين هو من مستويات الحضارة والكفاءة الانتاجية واحترام الزمن والالتزام بالواجب وكفى بنظرها ان يكون العامل من بلد برجوازى ليوصف بالاستغلالية وكفى ان يكون اسود اللون في امريكا او ان يكون من العالم الثالث لتجسد فيه معاني الملائكة ... وكل هذا من الأوهام الباطلة . حكى وزير زراعة عراقي زار دانيمارك في دعوة رسمية في النصف الاول من الستينات انه لم يكن يجد غير وزير الزراعة الدانيماركى من يحمل له شنطة سفره في تنقلاته وانه وجد العمال الزراعيين في قصر صاحب مزرعة كبيرة يشاركون رب القصر مائدته في الوجبات الثلاث واكد بالايمان ان زربية احد الفلاحين الذين زارهم ضمن تلك المزرعة كانت انظف من بيته هو ولم يكن احد من اولئك بما فيهم صاحب المزرعة وبنته الوحيدة يقصر في واجبه ولم يكن احد من العمال الزراعيين يترك ليله بلا فسحة في ملاهي المدينة . ان الحضارة ياسيدى تفعل الاعاجيب في كل حلبات التصرف .. قرأت بأسف بلغ حد الحرقة ان حكومة ستالين باعت في بعض سنوات الثلاثينات كنوزا من التحف « البرجوازية » من مثل هدية غراندوق الى زوجة نابليون .. باعت هذه الكنوز بسعر المادة الاولية التي كانت مصنوعة منها وبعد سنين من هذه الجناية الفنية التأريخية الحضارية تنبه الأذكياء الى عظم الخسارة فأصبحوا يتوسلون هذا وهذا ممن شروا تلك الكنوز لعلهم يعيدون بيعها للروس وأن سيدة امريكية عظيمة الثراء اعادت اليهم تحفا كثيرة .... وهذه صور تبتعد قليلا عن ميدان الانتاج ولكنها ملتصقة بالانسان الذي ينتج فهو اذا كان بيع كيلو غرام من التحف بسعر كيلو غرام من البرونز المصروف في قولبته فنا وجمالا وخيالا فما أحراه أن يهمل خامات الحديد واسلاك الكهرباء ! بودي لو استطعت مسايرة الفقرة المقتبسة اعلاه التي

جاءت بعد فقرات اخرى تقول ان الركود والتعفن والتأخر بدأ في النصف الثاني من السبعينات فالذى اعتقده هو أن خميرة هذه السلبيات كانت موجودة في جميع المراحل التي سبقتها منذ فرض الشيوعية بالقهر والقوة فقد كفى ان ملايين من الناس ماتوا في وطن الاشتراكية في الثلاثينات جوعا فأن ناسا من العراقيين الذين زاروا روسيا بعد ثورة ١٩٥٨ وجدوا آثار الكساح في شباب أعترفوا بأنها نتيجة جوعهم وهم اطفال في الثلاثينات . وهل يستغرب الجوع في وطن يضايق فلاحه بالاضطهاد حتى يجد الراحة في قتل غنمه وبقره وخيله وبغله منعا لوصولها الى يد السلطة ؟ انا لست ياسيدى في موقف من الاطلاع على الاشياء ببلدكم حتى افهم السبب الحقيقي لأستفحال السوء في السبعينات عندكم ولكن الذى يبعث على الاستغراب ألا يحدث ذلك في وقت من الاوقات في ظل القهر ومصادرة الحرية والعمل المسخر والاذلال بالسجود لدكتاتور ! والذى لاشك فيه انه لم تكن الصناعة الروسية « الاشتراكية » في اى وقت من الاوقات بمستوى صناعة اية دولة برجوازية لها صناعة ما : يقول الكاتب في وسط الصفحة ١٨ « ان الكثير من الاجهزة المنزلية من نوع رديء » ويقصد به انتاج سنوات السبعين : لابد انه يشير الى زيادة السوء في انتاج تلك الحقبة بقياسه الى ما سبقه والا فنحن لم نسمع قط أن تكون الموسكوفيج وغيرها من موديلات السيارة الروسية بمستوى قريب من مستوى سيارة الدول البرجوازية . وحين استقبلنا خبراء من الروس بعد ثورة تموز ١٩٥٨ وجدنا ناسا على وجوههم غبرة الفقر وفي عيونهم الخوف من الشخص الذى يوجههم حتى أن احادا منهم سألوا باستغراب بعدما شهدوا أسواق العراق عامرة بكل ما تشتهيه النفوس : ما الذي دفعكم الى الثورة وانتم تملكون هذه الخيرات وكان منهم أناس نزلوا فنادق الدرجة الاولى ضيوفا على الحكومة العراقية بقوا فترة يتهيبون من مشاركة النزلاء في

الوجبات الدسمة المتنوعة بأفخر أطباقها ومشهياتها وفواكهها فيأخذون رغيف خبز وشيئا من السلاطة ينزوون بها في ركن ... حقا انهم كانوا في منتهى الأدب لا يحس بهم أحد وهم يدخلون ويخرجون ولكنهم كانوا يبدون أشبه بسكان كوكب آخر .

بعد أشارة الكتاب الى ان الاجهزة المنزلية السوفيتية من نوع رديء يأتي تعداد لأوجه النقص والتراجع والفساد على جميع الأصعدة بما فيها الايديولوجي والخلقي . ان جميع رؤوس السطور في وسط الصفحة ١٨ حتى موضوع : (التوجه الى لينين ، مصدر ايديولوجي للبيريسترويكا) في وسط الصفحة ٢٣ بحاجة الى تعليقات مركزة مكثفة كاشفة كي تزول منها لهجة الأستغراب مما حدث : وهذه عينات من الكلام الذي ورد في هذه الصفحات .

١ ـ بدأ تدهور تدريجي في القيم الايديولوجية والمعنوية لشعبنا ـ وسط الصفحة ١٨ ـ .

٢ ـ معدلات النمو تخفض ... تناقص في الأستعداد لتلقي منجزات العلم والتكنولوجيا ... تباطؤ في تحسن مستويات المعيشة ... صعوبات في توفير المواد الغذائية والاسكان والسلع الاستهلاكية والخدمات ـ بعد العبارة المقتبسة فوق مباشرة ..

٣ ـ دعاية النجاح ـ الحقيقي والمدعي ـ تحظى باليد العليا .. جرى تشجيع المديح والخنوع .. تم تجاهل آراء الناس والرأى العام ـ شجع التنظير المدرسي في العلوم الاجتماعية واستبعد منها التفكير الخلاق ... اعلنت احكام وتقييمات سطحية وعفوية على انها حقائق .. اثرت اتجاهات سلبية مماثلة على الثقافة والفنون والصحافة وعلى عملية التعليم والطب

حيث ساد المستوى دون المتوسط ـ والشكلية والمديح الصاخب أيضا ـ حتى الثلث الاول من ص ١٩ ـ ٠

٤ ـ كان لتقديم الواقع « الخالي من المشاكل » آثاره العكسية فقد حدث انفصال بين القول والعمل ٠٠٠ بدأ الفساد يسري في الأخلاقيات العامة ٠٠ زاد ادمان الخمور والمخدرات والجرائم ٠٠ وهكذا حتى النهاية ٠٠٠

ان الذى اعتقده ويؤكده الواقع التأريخي هو أن اغلب هذه العيوب قديمة موجودة منذ اوائل الثورة ٠ من باب المثال أقول ان دعاية النجاح وتشجيع المديح والخنوع كانت ركنا دينيا وطنيا بروليتاريا ماركسيا مفروضا على الشعب السوفيتي في ليله ونهاره على ايام ستالين ٠ الحزب كله كان كما مهملا بل ميتا تحت قدم ستالين ، والشعب كله اكثر منه موتا ! اما روح البطولة في الحرب واثناء اعادة التعمير المعروضة في ثنايا الجمل فتفسيرها واضح : فالحرب كانت تهدد الوجود الروسي لأنها كانت حرب ابادة اي Annihilation فلم يكن يفيد الأستسلام لتوفير السلامة ٠ ان الجيش الهتلري اباد حتى الناقمين على نظام ستالين الذين استقبلوا الألمان بالزغاريد ، ورفض الجنرال الروسي الابيض الذى نسيت اسمه وما جمع من انصار مستعدين لمحاربة الروس ٠ والدنيا كلها لاحظت تغير خطب ستالين من ترديد مفاهيم الطبقية الى رفع شعارات الوطنية الروسية بعد أن رأى جدية خطر الزوال ٠ فالروح البطولية اثناء الحرب قد ثارت من مكامن ابعد غورا من عمر الثورة واكثر عمقا من ان تستطيع جرائم ستالين قلع جذورها فالحرب المنتصرة فرضتها المانيا على الشعب الروسي وانبعثت روح التضحية من ملايين الروس برغم المذلة ومصادرة الانسانيةالتي مارسها ستالين ضدمواطنيه٠ولئن كان دفاع الانسان عنروحه

لا يحتاج الى تنظير وتفسير فلا يخلو من فائدة ان اذكر الدنيا بما كان من روح الأصرار على حماية الكرامة القومية التى ابداها الشعب الفنلندى في الحرب التى فرضها ستالين عليه وقد ظنها في اول الأمر من فسح المناورات او جولة من جولات تمرين العضلات وكان المظنون انها حرب بين نمر وقط فخابت الظنون ببطولة الفنلنديين • وللروس انفسهم امثلة في الدفاع عن النفس بما يرفع اي استغراب فقد كفى الاستشهاد بموقفهم من حرب نابوليون • الخلاصة ان حماية الروح مشهودة في كل حي •

امـــا المعنويات العالية في اعـادة التعمير بعد الحرب فهى من بعض الوجوه امتداد للحماس الذي كان متقدا وقت الحرب يمازجه أمل عـذب بمكافأة الذات على البطولة والتضحية وقد يكون ظروف مـا بعـد الحرب المستدعية لأحوال عمل مريحة تساعد على سرعة الأنجاز قد قللت من صفة القهر والسخرة او استبعدتها نهائيا فـكان اقبال العامل على عمله بروح مستبشرة بالأضافة الى انه كان يعيد بناء بيته ومزرعتـه وطرق مواصـلاته ولنا من روح البطولة التي اظهرهـا الشعب الفنلندى بلا ضجيج او شعارات أو أدعاء بطولات في تبرعه بساعتي عمل يومي اضافي دون أجر على مدى السنوات التي تم فيها دفع الأتاوة المفروضة من قبل روسيا بعـد الحرب ، هذه الروح لا تبقى استغرابا مهما يـكن قليلا مـن اقبـال الروس وغير الروس على اعادة البناء وهل قصر البريطانيون أو الالمان ؟

اذا كان لابد مـــن التسليم بأن السبعينات امتازت ببـروز العيوب الضخمة في المجتمع السوفيتى فتفسير ذلك او تعليله لا ينحصر في أسـباب خاصة بتلك الحقبـــة اى انها لم تنبع كما ينبع بئر نفط فجـأة او تنهمر زخـة مطر من غيمـة عابرة • ولئن كنت بعيـــدا عن وطن الاشتراكية فلست بعيدا عن هذا العالم الأوسع الذي يمـد الأنسان بأسباب الاستنتاج

لاسيما في أمور واضحة الحدود بمفهومة العناصر فالذي يبدو أن من الأسباب الوجيهة لظهور هذه العيوب في السبعينات ثلاثة أسباب مؤكدة الوجود • السبب الأول هو ان تراكم السلبيات بحد ذاته يؤول الى ضمور القابليات وفتور الحماس واستشراء الأهمال وهو شيء لا يختص بمكان وزمان معينين بل هو سارى المفعول مطلقا • والسبب الثاني هو تزايد اطلاع الشعب السوفيتي على حقيقة الأحوال في الدنيا من حوله وانها ليست ذلك الجحيم الذي تصوره نظرية الطبقات وفوائض القيمة وعمليات امتصاص الدم فقد وجد في المقارنة ان تمشية الحياة في بلده في ضوء هذه المقولات ما أخرجت الجنة الموعودة منذ اكثر من نصف قرن • ولما كان المجال أمامه مسدودا لطلب التعديل والتصحيح ركبه العياء والكلال فمال الى السلبية وكان مما يستطيبه القادة المسيطرون على المصائر في بلدكم ان ان تستمر الحالة على النمط التقليدي الذي ارتفعوا فيه الى النعيم المضمون الخالي من التعب واحتمالات الأفلاس • والسبب الثالث ، وهو ذو صفة سالبة ، هو خلو الساحة من قبضة فولاذية وشخصية اسطورية من وزن ستالين تستطيع بالقهر والجاذبية الشخصية والهالة المقدسة من حوله ان تديم في الحركة مجتمعا متعبا مخذول الآمال • ولكي يزداد هذا السبب وضوحا نفترض ان روسيا حكمها بولغانين أو كوسيجين أو بريجنيف في العشرينات والثلاثينات والاربعينات ـ وقت الحرب ـ وهي جميعا أصعب فترات التجربة السوفيتية فهل كان متصورا ان ينجح هؤلاء في تحريك جهاز الدولة وسط المصاعب الحاطمة فهم قد أخفقوا في منع الركود والتقهقر على ابان انقياد الظروف والأحوال بعد الحرب للارادة الرشيدة الحكيمة ؟ أن المتتبع لمجريات الأمور في الأتحاد السوفيتي لا يصعب عليه ادراك الحقيقة التالية وهي ان لينين نفسه لم يستطع رغم شخصيته

الاسطورية ومكانته السامية في القلوب ان يقود بلده المتعب بعد الثورة والحرب الداخلية الى اى مقدار ملحوظ من الرفاه المنتظر والموعود فلقد كان امير ثلاثة عوامل حاسمة ضيقت بوجهه احتمالات الترفيه وهي أولا استحالة قدرة الأشتراكية المفروضة بالقوة والآخذة بمبدأ مناهضة النزوعات الفردية ليحل محلها « روح الجماعة » عن تحريك مجتمع هو في طوره الذى حدثت به الثورة ابعد ما يكون عن الشعور العام المشترك الضرورى البديل من الحافز الفردى كى يتم تحريك افراده وجماعاته في طواعية قطع الشطرنج لخطط اللاعب بها حتى ولو كان اللاعب هو لينين نفسه فالمقدار المنضبط من مجموع الشعب الروسى والناضج الى حد الكفاية لتلبس بروح الجماعة كان يضيع في بحر مجتمع متفاوت في حد ذاته في كل ميادين الأجتماع ومعزق بالهزيمة والحرب الداخلية ومتلهف على لقمة يأكلها ولحظات راحة يتنفس فيها وموعود بالنعيم والهناء المستديم الذى لم يكن ممكنا الا في الخيال والشعارات .. حتى ان المقدار المنضبط نفسه ، كما نقرأ من خلال ما حدث بعد الثورة ، ثار أو تمرد قسم خطير منه على مسار الثورة في أيامها الأولى لا لأنه خان نفسه ومبادئه ولكن لكون التخطيط والتنفيذ بعد الثورة لم يأت على حسب الموعود . وأقول هنا أيضا أن عدم التطابق ما بين شعارات الثورة وبين انجازاتها لم يكن بنية شريرة من قيادتها بل نجم من طوباية فلسفة الثورة ذاتها واستحالة تطبيقها الا على الورق . ان كلمات زعماء الثورة في الحقبة التي تلت الثورة مباشرة لا تخرج عن روح خطبة يلقيها قسيس في وصف الجنة التي تكون بعد الحياة الدنيا كلها بشارات للمؤمنين وترويعات للفاسقين ... العامل الثاني هو استحالة الارتداد الفوري ضد وهمية شعارات الثورة وبعدها عن واقع الحال بعدا يقطع الصلة بينهما . ولو استعملنا الخيال المؤزر بالادلة في ميدان الحياة العملية لأستطعنا ان

تقارب الحقيقة في تفاصيل التصادم اليومي المستمر بين شعارات الثورة الطبقية ودواعي الواقع الذى لم تلده الشعارات • ياترى كم مرة في كل يوم حصل تناسي مفاهيم شعارات الثورة كي يمكن تسيير قطار التوت خطوطه ونفد وقوده وأعدم سائقه وزج مهندسوه في السجون بسبب الأنتماء الطبقي وتبلد عماله في زحام المشاكل التى لا حل لها وهم بالأصل غير مؤهلين لتسيير القطارات فاذا حصلت المعجزة بكل الطرق المشروعةوغير المشروعة فتحرك القطار ، لك ان تتصور مرة اخرىالزغاريد والهتافات ومظاهر الفرح بقدرة الثورة على الخلق وتحقيق المستحيل بتمشية القطار مع العلم بأن عشرة قطارات تكون قد تحركت خلال المرة نفسها من محطة في السويد أو الدانمارك أو فرنسا بلا زغاريد • تذكرني هذه الملحوظات بفيلم يصور حالة عالم يعتاد مراجعة الكتب في كل مشكلة فلما أضطر الى منازلة شخص مشاكس وضع الى جانبه كتابا في فن الملاكمة فحدث انه كلما راجع تعليمات الكتاب تلقى لكمات هائلات فألقى بالكتاب بعيدا وهاجم خصمه بلا نظريات فصرعه في لكمة واحدة •• لم يكن لينين وصحبه قادرين على نبذ كتبهم وشعاراتهم بالسهولة المشهودة في الفيلم وان كان عنصر النجاح في الحالتين واحدا وهو اتباع ضرورات الحال لا خيالات الحالمين • العامل الثالث هو مرضه الذى شل قدرته الخارقة في تبديل التكتيكات ووضع البدائل • كان بحاجة الى فترة زمنية كافية بقدرة صحية كاملة لأستيعاب مجمل الحال الناشئة التي تقتضي حلولا من تراب الثورة لا من اعلامها الخفاقة • لعلى قد أجد دليلا على صحة ما ذهبت اليه في تعليل الركود والفساد من هذا الكلام الذى اقتبسه في أواخر الصفحة اذ يقول :

(وكانت الجماهير العاملة ساخطة بحق على سلوك الأشخاص

الـذين يحظـون بالثقـة والمسؤلية . ومـع ذلك يسيئون استخدام السلطة ، ويقمعون النقد ، ويجمعون الثروات ، والذين تحولوا حتى الى شركاء في اعمـال اجرامية . ان لم يكونوا منظمين لها) . فالجماهير هذه لم تفكر فيما سبق من الزمـان في السخط ولم تـكن قـد تعودت قط ان تسمع نقـدا على أيام ستالين حتى رأت نفسها أو وعت نفسها في السبعينات ففطنت الى مـا يجري من سـوء والتواء فصارت تنتقد فيقرع نقدهـا . ولـكن لي تعديلا بسيطا في صيغة الـكلام يفرضه منطق الكتاب نفسه فلا داعي للنص على (الجماهير العاملة) هـكذا بشكل مطلق لأن العمـال أنفسهم كـانوا مشاركين في صنع الأشياء الرديئة والتصرف اللامسئول والاسراف العبثي في المواد ... الخ فالأصح ذكر (الجماهير) فقط فـاذا كان لابد من تحـديد هويتهم وجب القـول (الجمـاهير الواعية ، أو المخلصة ، المثقفة ...) حتى ينتفي العجب من سخط ناس هم انفسـهم جزء مـن أسباب السخط .

في صـدر الصفحة ٢١ يجامل الرئيس غورباتشوف (الشيوعيين) حين يقول : (وبطبيعة الحال ، كانت تنظيمات الحزب تعمل ، وأدى غالبية الشيوعيين واجبهم نحو الشعب باخلاص وتفـان ..) وهي مجاملة ربما فرضتها اعتبـارات خاصـة تخـدم غرض البيريسترويكا نفسها تفـاديا لجرح شعور عامـة الحزبيين . وبغير هـذا التعليل أو تعليل مماثل لـه لا أدري كيف اقتنع بحصول التقهقر والفساد رغم تفـاني واخـلاص غالبية الشيوعيين في بلد محكوم من قبل الشيوعيين على حين تعلل الفساد والتقهقر نفسه بعـدم التفاني والأخلاص ؟ ان أية أمـة تـكون غـالبية أبنائها الذين هم مـن ذوى المركز المرموق متفانين ومخلصين ستكون بألف عافيـة وسلام . وللرئيس غورباتشوف كلام في سطور من النصف الأول

للصفحة ٢٢ يلقى ضوءا كافيا لمعرفة حقيقة أولئك الذين كانت العبارة السابقة قد عنت عليهم فهو يقول هنا : (وانتقد الناس الذين يمتلكون خبرة عملية واحساسا بالعدالة والتزاما بمثل البلشفية الأسلوب القائم للعمل) ، ولا حساسية عندى في كلمة (البلشفية) هنا فهي كأى مذهب سياسى اجتماعي لها أسس خاصة بها صيغت اصلا بعناية من يدرأ النقص المؤدى الى الخلل وغيره ، فالمسيحية نفسها وهى على الطرف المعاكس للبلشفية تمد المسيحي بمثل اذا تمسك بها امتنع من الألتواء .. ولكن يبقى مجال للقول بأن من يملك (خبرة علمية واحساسا بالعدالة) سواء أكان بلشفيا أم بورجوازيا أم من الهندوس أو المسلمين يؤدى واجبه على الوجه الصحيح ولا يلتوى ولا يمجد الألتواء من ذوي المراكز الرفيعة لكن الأنتماء الحزبي سواء من البلشفي أم من اى حزب آخر يؤمن بنفسه فقط يكون على وجه الضرورة عائقا خطيرا لوقوف الحزبي ضد انحراف حزبه . ان الحزبي الذى يؤمن بحزبه فقط يرفض حتى المواقف النبيلة من حزب آخر له ايديولوجية خاصة به ويكره تمتعه بأية سمعة نظيفة ويستهلك كل قواه العقلية لتشويه أسم الآخرين وتأويل حسناتهم على أنها قباحات . وهذه ظاهرة ملموسة بلا داع لتكلف الأدلة . فما عسى يكون موقف شخص حزبي من هذا الطراز اذا التوى حزبه او قائده ؟ انه يعكس الآية بلا تعب فيسمى قباحاته فضائل بالسهولة التى سمى بها فضائل خصمه قباحات .. وهذه طبيعة اى حزب لا يؤمن بحرية اختيار الآخرين وتعدد الآراء والأحزاب فاذا برز بين صفوفه احاد من طينة أخرى تمت تصفيتهم وفي ذلك حكمة مضاعفة ففيه خلاص من العناصر المقلقة وفيه ترويع لعامة الحزبيين وغيرهم من سواد الناس ولربما كانت تصفيات ستالين ابرز مثال في تأريخ النضالات كلها على ما أقول .

انـا لم نسمع بتصفيات داخلية مماثلة لما فعله ستالين في طول الفترة التي اعقبت حكمه ولـكنا وجـدنا كيف تم القضاء على كـل حركـة طالبت بشيء من حرية التصرف في دول أوروبا الشرقية ومـا خلا ذلك من الأيحاء للحـزب البلشفي بأن مصيره لا يـكون خيرا مـن مصير المجـر وجيكوسلوفاكيا • وان مـن حقي أن أتساءل : ياترى ماذا كـان خليقا ببريجنيف ان يفعل فيما لو طـالب أحـد في أيامه بالبيريسترويـكا والغلاسنوست ؟

بعد مجاوزة امور اخرى تستدعي التعليق أصل الى واحدة من اعقد العقد في موضوع وسط الصفحة ٢٣ بعنوان :

التوجه الى لينين:مصدر أيديولوجي للبيريسترويكا

هـذا العنوان متبوع باستطرادات تستغرق أقل من صفحتين • وفيهما أشارات غير مشروحة الى لينين مثـل : (بقيت اعمال لينين ومثله عن الاشتراكية بالنسبة لنا معينا لا ينضب للفـكر الابداعي الجدلي ، والأثراء النظري والحصـانة السياسية ••• ان لينين يعيش في عقول ملايين الناس وافئدتها •••) • ويقول (والتوجـه الى لينين حفز الحزب والمجتمع اليه بدرجة كبيرة سعيا للعثـور على تفسيرات واجـابات عن الاسئلة التى طرحت •••) •

ويستشهد الرئيس غورباتشوف في نهاية الصفحة ٢٣ وبداية الصفحة ٢٤ بخبرته الخاصة في اثبات مـا تقـدم عن لينين فيقول : (ففي تقريرى بتأريخ ٢٢ ابريل ١٩٨٣ في الأجتماع الجماهيرى المكرس للذكرى ١١٣

لميلاد لينين أشرت الى معتقدات لينين حول الحاجة لأن نضع في الاعتبار متطلبات القوانين الأقتصادية حول التخطيط والحساب الأقتصادى والاستخدام الماهر للعلاقات السلعية ـ النقدية والحوافز ...) .

ثم يقول : (واليوم يوجد لدينا فهم افضل لمؤلفات لينين الأخيرة ، التي كانت في جوهرها وصيته السياسية . فعندما أشتدت عليه وطأة المرض كان شديد القلق على مستقبل الأشتراكية وادرك الأخطار التي ترصد النظام الجديد ... لقد رأى ان الأشتراكية تواجه مشاكل هائلة وان عليها ان تكافح بقدر كبير من اجل ما عجزت عنه الثورة البرجوازية عن تحقيقه ...) .

وينتهي الى ما يلى : (والفترة اللينينية على جانب كبير من الأهمية في الحقيقة وهي تعلمنا لأنها برهنت على قوة الجدل الماركسي اللينيني التى تستند استنتاجاته على تحليل الوضع التاريخي الفعلي ...) .

من المؤسف انا لا نملك نصوص كتابات لينين التي تشير هذه الاسطر اليها ولا نبتا بالأحداث التي اوحت بهذه النصوص او استوحت من هذه النصوص فقد لاحظت ان لينين بوصفه قائد معركة اكثر من وصفه فيلسوفا مشغولا في الدرجة الاولى بالتنظير ، لاحظت انه كثيرا ما يتناول مواقف خصومه بالنقد فيتمادى فيه حتى يستخلص منه احكاما عامة يختلط فيها الحدث والنظرية وليس مستغربا على مثل عنفوان لينين في رد خصومه ان يستشهد بحدث آخر مختلف المدلول فيستخلص منه ايضا احكاما عامة : انه في مجمل أمره قائد تكتيكى يتعامل مع المتغيرات حتى انه طور الماركسية بحسب ما يعتقد انه مقتضى الاحوال المستجدة . لقد وجدته في كتابه (عن الامبريالية والامبرياليين ـ دار التقدم موسكو ١٩٧١) يتناول اناسا مثل كاوتسكى وبليخانوف ممن اعتبرهم خارجين

على الماركسية بكلام بلغ الغاية من العنف والانفعالية خرجت به عن الموضوعية خروجا بعيدا من دائرة تحري الحقيقة والمصلحة او الأنصاف • انه لم يقطع الشعرة مع حكومة المانيا في معاهدة بريست ليتوفق ليقينه بأن سلامة ودوام الدولة السوفيتية متوقفان على الخروج من الحرب ولكنه قطع الشعرة مع خصومه الذين لم يكونوا قط أسوأ من قيصر المانيا ، ولو وصلوا الى الحكم لكان الأحتمال الارجح بقاء دولة ثورة اكتوبر على صورة من الصور • ولكن عنفوان لينين وثقته الكاملة بنفسه وافكاره واداته الكاملة لأفكار غيره سهلت عليه مناجزتهم الى حد الوقوف ضدهم في نهاية الطرف الاقصى منهم وليس من الصعب ملاحظة كون لينين بعد نجاح ثورته انسانا جديدا يختلف كلية عنه في أيام ما قبل الثورة وهذه صورة من صور ما سبق لي قوله ان (المنتقد) في العادة يقول ويتصرف من موقع اللامسئولية لأنه غير ملزم بتقديم الدليل الأصلح أو المساوى لما ينتقد وانما يقدم كلاما منمقا مختارا في قضية من قضايا البشرية التي لا يمكن ان تكون خالية من النقص • ولكن مع هذا اجد من حقي ان اعاتب انسانا ينتقد غيره في شيء ما ثم يأتي هو بشيء لا يتميز بذلك الكمال الذى يبرر رفضه المطلق لعمل غيره • ان الانسان ملزم ادبيا وانسانيا وعلمانيا ومصلحيا ومن كل وجه ان يكون نقده لغيره مبنيا على امكانات متوفرة وغير مستعصية لبناء ما هو افضل : لابد من وجود قربى بين درجة النقد وبين (احتمالات الأحسن) • في رأيي كان لينين واحدا من الأفذاذ المشحونين بطاقات ثورية وتغييرية هائلة ، يصرفها حسب طريقته في التفكير والى هدف هو مؤمن به فليس له صبر على التريث لمعرفة اعذار الآخرين •• فهو اختار ان يركب قطار قيصر المانيا لسرعة الوصول الى بلده ولكنه بلا أدنى ريب لم يكن يسامح

أحدا غيره فيما لو قام بما قام هو به ذلك أن عنفوان طبعه ونقته المطلقة بنفسه (التى تتضمن بالضرورة قلة ثقته بالآخرين خارج دائرة عقيدته) ما كانت لتتفتح على مباركة التهادن مع المانيا في قطار العودة ما لم يكن نفسه هو العائد . لقد استعصى عليه قبل نجاح ثورته ان يهادن الاشتراكيين الثوريين ، مثلا ، ولكنه صالح المانيا في بريست ليتوفسك . وهو في مواقفه هذه يصدر من حكم ضميره المتلىء بالرضا عن الذات والاطمئنان الى سلامة نواياه ، أما أن يقبل سلامة نية انسان آخر يخالفه في رأيه فذلك شيء كان مرفوضا رفضا قاطعا في طبعه . انه رفض الاستماع الى اى صوت من اطراف ثورة ١٩١٧ يدعو الى اللين والتهادن ، حتى اذا قامت الدولة السوفيتية وفق نظريته هو برزت المشاكل فمنها ما كان من قبيل طبيعة الاشياء في كل عمل مماثل ، ومنها ما كان من نتائج الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي وهى كلها أمور كان من المنتظر ان تقع ولا يعذر فيها الانسان بعدم اخذه الأهبة لها او سبق تحسبه منها : ولكنا مع ذلك نسقطه من حسابنا ونقف فقط عند المشاكل التى كانت ناجمة عن تطبيق الأشتراكية بوجه مصاعب بل بوجه مستحيلات كانت غير خافية على اى شخص ينظر الى الدنيا بغير تحيز . فالذى يشير اليه الرئيس غورباتشوف من خوف لينين ، بعد اشتداد المرض عليه ، على مستقبل الاشتراكية نتيجة ادراكه للاخطار التى ترصد النظام الجديد هو في الحقيقة ، وضع نشأ من عدم نضج الاحوال لأية اشتراكية في روسيا عام ١٩١٧ والعشرينات فلقد اصبح الخطر الخارجي وشبح الحرب الأهلية ، بل حتى وجود معارضة داخلية من المتعذرات المستحيلات التى لا يحسب لها لينين اى حساب في مخاوفه فلا يوجد غير سلبيات النظام المفروض من أعلى

الناشئة من عدم توافقه مع حقائق الأحوال والخلفية التأريخية والرغبات التلقائية للجماهير لتكون موضع مخاوف لينين • ومن مفارقات هذا التفاوت بين ما تقتضيه ثورة اشتراكية من تقدم حضاري وبين احتوال روسيا المتدهورة في اعقاب الحرب والهزيمة هو ما نسمعه من افتخار البلاشفة بقيام دولة اشتراكية في بلد كانت حقائق الحياة فيها لا تؤهلها حتى الى نظام ديمقراطي سليم فلقد كان في امكان البلاشفة ، اذا أصروا ، ان يقيموا نظاما كهنوتيا بدلا من الاشتراكية باستعمال الوسائل التي استعملت في الثورة الاشتراكية • ولا نعلم مدى ما كان يمكن أن يحصل من فرق بين الآثار السلبية التي حدثت بعد الثورة الاشتراكية ، وهي نفسها قد حملت لينين على التخوف من الاخطار المحدقة ، وبين ما كان سيحصل قطعا من الويلات في دولة كهنوتية ، ولكني لا أظن أن تجاوز هذه الآثار كان يصعب على اصحاب الشأن فالثورة البلشفية نفسها قد انقلبت على جماهيرها لسنوات طويلة حتى سخرتها لأرادة ستالين ففعل بها الأفاعيل • والكلام هنا في اقامة دولة كهنوتية يدور حول افتراض لم يكن له أن يحدث بحال من الأحوال ولكنه يساعد على تقريب الاحتمالات المتعددة لنتائج شيء واحد بالذات ما دامت ارادة البشر وليست قوانين الطبيعة هي المسيرة • ومما لا يحتمل الجدل ان الثورة البلشفية كانت تجاوزا واسما لأسس التحليل التأريخي والجدلي الماركسي وشروطه في قيام مجتمع اشتراكي ، ولا يتأتى الا بتأويل واسع الأنفراج اعتبار الثورة البلشفية اغتناء للماركسية فليس مما يغني دائرة الأنواء الجوية ان ينزل مطر غزير عقب نشرة تبشر بسماء صافية • وتوالت تجاريب الثورات الاشتراكية بتجاوز تام لشروط ماركس حتى وجدناها تنجح في أكثر بلدان الشرق تخلفا ولكنها جميعا في اخفاقاتها الفادحة ودمويتها الوبيلة

جاءت مزكية لماركس وشروطه الحضارية بقياسها الى ضحالة الفكر التى اتسمت بها هذه الثورات حتى لم تخرج عن كونها مغامرات . ولكن لابد من القول بأن هذه التزكية التى هيأتها روح المغامرة لدى اولئك الثائرين داخلتها موازنة لافكار ماركس بأبعاد المجتمعات المتحضرة عن (الثورة الاشتراكية) التى توقع قيامها في تلك المجتمعات . ولزيادة توضيح دور الثورة في نشوء المصاعب التى خاف لينين نتائجها اقول ان سنوات العشرين التى تعتبر من الفترات المدلهمة في حياة الفلاح الروسى كانت من أزهى عهود الازدهار للفلاحين في عموم المناطق التى اطلعت على احوالها في بلدى فقد كان انفراج الاحوال بعد الحرب وانعدام العراقيل الفلسفية والثورية امام الفلاح وغير الفلاح ابسط سببين بدائيين لانتعاش الناس حتى ان الفلاح كان بسبب استغنائه عن اسهامات مالك الأرض بالبذور ووسائل الانتاج أصبح يكره وجود المالك حتى حلت سنوات الكساد العالمى في ازمة آخر العشرينات وبدايات الثلاثينات فاختل الميزان ولكن ليس الى حد الفاقة الا بعد اشتداد الأحوال في سنوات الحرب الثانية . هذا مع العلم بأن بلدى كان خارجا من حرب ١٩١٤ وتابعا للحكم العثماني اثناء الحرب الاولى وأصابه القحط المميت سنة ١٩١٧ وظل مرتبطا بريطانيا في العشرينات والثلاثينات حتى نهايات الخمسينات وهو في القياس الى روسيا القيصرية يعتبر في نهاية التخلف .

في كثير من استشهادات الكتاب والمفكرين والسياسيين ، حتى العسكريين ، الروس بآراء لينين تجدهم يستعيرون منه اقوالا تتضمن نصائح عامة بالتزام الطرق الصحيحة وما الى ذلك مما ليس فيه وضع نقطة واحدة على حرف واحد مثل الذى سبق من قوله : (الحاجة لأن

نضع في الأعتبار متطلبات القوانين الأقتصادية .. والاستخدام الماهر للعلاقات السلعية ـ النقدية ...) فان أصغر بقال في السوق يلتزم في مجال عمله بما هو أدق وأحوط من ذلك . أجد عسكريين كبارا من الروس البلاشفة يبدأون وصاياهم في مجال الأرتكان الى الرادع النووى الذى جاء بعد عشرات السنين من موت لينين بوجوب الالتزام بالماركسية اللينينية في الفن العسكرى ولا يقولون ما هو هذا الفن او الطريقة التى يمكن ان تستنبط بها الخطط في السوق والعمليات فأنه مما لا يرقى اليه شك ان كلا من ماركس ولينين كان ابعد الناس عن تصور الطريقة المثلى لتفريغ لورى عسكرى من شحنته ، ولا اعدو الواقع اذا قلت ان اكبر كارثة عسكرية يمكن ان تلحق بجيش من الجيوش تكون اذا استعان قادته في خططهم وتكتيكاتهم بآراء المنظرين ولو كانوا من وزن ماركس . وارجو الا اكون مناقضا لنفسى اذ أنقل عبارة وردت في مقالة لي بعنوان (حوار غير متكافىء مع الحرب) ضمن كتابى الموسوم (من هموم الحياة) الصادر سنة ١٩٨٨ فقد قلت من منظور كون سكان العراق ثلث سكان ايران ما يلى : (وربما كانت نسبة « واحد الى ثلاثة » لنا ولهم من الخسارة البشرية هى الحد الأدنى الذى يوافقنا فالسيولة البشرية كالسيولة النقدية تنفد في المثة قبل ان تنفد في الثلثمئة اذا استمر تناقصهما بنسبة واحد الى ثلاثة) . فهذا الكلام ليس فيه خطة عامة وانما هو داخل في باب البديهية مصحوبا بشىء من التنوير وعنصر الاقناع . وفي يدى كتاب (فن الحرب السوفيتى من ترجمة الدكتور كاظم هاشم نعمة ومن اصدارات « دائرة التدريب ـ مديرية التطوير القتالى العراقية بطبعته الاولى لسنة ١٩٨٧ » وفيه خمسة وخمسون مقالا بقلم أكابر الساسة والعسكريين البلاشفة يلحظ فيها جميعا مقام لينين مع القليل من ذكره في سنوات عبادة

ستالين ، ولا يكاد القارىء لتلك المقالات يجد شيئا مستحقا للاهتمام ، الا ما ندر بعد تصفية قيادة الجيش الروسى سنة ١٩٣٨ فأغلبها فتربنات للرياء الى القيادة السياسية بحسب مزاج شاغلها • ولكن الذى يحوز جل اهتمامى هو العنف الذى يبدو في كلام لينين في تغليظه الشديد على استحالة زوال الحرب قبل تصفية الطبقات فهو في هذا التأكيد الجازم واقف على الطرف النقيض لكل محاولة جدية مخلصة يبذلها جماعة البيريسترويكا للتفاهم مع الامبريالية على ايجاد صيغ للتعايش السلمي ودحر شبح الحرب • غير انى لا أتمسك بهذا حتى لا اكون محرجا فمن الممكن ان اتبرع من عندى أن الخطر المحاق الذى يتهدد البشرية في يومها الراهن لم يكن موجودا في ايام لينين ولا اضايق المحاور باسقاط عذر قائد مثل لينين في اطلاق الحكم على المستقبل وهو الذى تصدى لصياغة حياة الناس في الحاضر والمستقبل فأن الامثلة كثيرة جدا في جريان الأمور باتجاه مضاد لما توقعه سواء فيما يخص مسار الاشتراكية نحو تحقيق الأمانى والتجمع العفوى للجماهير حول شعاراتها وأهدافها او ما كان من رأيه في مصير الرأسمالية نحو الزوال المحتوم • والواقع هو أن تفرده بالآراء النهائية التى لا رجعة عنها وآمن بحتمية انتصارها (والحتمية تتضمن معنى القرب والسهولة لا البعد والاستعصاء) جعله قطب المعارضة الثورية لكل الفئات التى استصعبت تحقيق الأشتراكية ولولا ايمانه الراسخ الجذرى المفروغ منه بجريان التأريخ على هذه الوتيرة ليس في روسيا فقط بل في اوروبا والبلدان المتقدمة كلها لما كان قادرا على مجرد الافصاح عن تلك الآراء بسبب بعدها الشديد عن اذهان القائمين بثورة ١٩١٧ • ويلاحظ مما يروى عنه في أيام الثورة انه كان مأخوذا بعنفوان الجماهير في الأيام الأولى فيقول ان الجماهير أكثر منا ثورية

ويزداد بذلك تصديقا لواقعية شعاراته وتخلف شعارات المعتدلين او الواقفين في الخط التالى لخطه الثورى • وليس لنا الا أن نجد القربى بين مزاجه الشخصى الفائر المندفع وبين اندفاعات الدفقات المغالية للمد الثورى الاول المتزود قوة بانهيار جبهة الحرب من جهة وتفاقم المشاكل بلا حل من جهة أخرى • فكان لينين في مجمل هذه الصورة كالسهم النارى يشق الفضاء باندفاع لا مزيد عليه فليس غريبا أن تأتى اقواله منسجمة مع مقتضى الحال في العنفوان والحدية وهذا هو السبب ، في نظرى ، الذى جعل كثيرا من آرائه المحددة في احداث التأريخ اللاحق لا تتحقق بالاضافة الى أن ذلك نفسه كان سبب امتناعه عن تصديق أى رأى لا يتماشى مع الحدية والنهائية يتهمه بأشنع الأوصاف • ومن هذه الحقائق ينكشف كيف ان المترعرعين على حب لينين وتقديسه يمتنعون من الاستشهاد بأقواله وآرائه التى حددها تحديدا لا يقبل التأويل الا ما كان منها متوافقا مع سياسة الدولة السوفيتية فبأفتراض انهم يسلكون منحى غير مستقيم فليس يضيرهم او يضير المصلحة التى يتصورونها ان يدعموا ذلك المنحى بعكازة قوية من اقواله فهم في كل الأحوال يدعون انهم ماضون في المنهج اللينينى •

انى اذ آخذ هذه المقاييس في نظرى الى ما قال لينين وما فعل لا انتقص من عظمته الشخصية كزعيم ثورى سياسى مقدار شعرة ، وعقيدتى فيه انه لو بقى حيا عشر سنين اخرى لغربل افكاره على رسله وصحح منها ما لم يتحقق فهو كان انسانا بعيدا عن التخيلات والتهيؤات ومتحررا من (الفكرة الثابتة) التى لا تتغير • ولسنا بوضع نحتاج فيه الى تعيين المدى الذى كان من الممكن ان يقطعه في تعديل

وتبديل آرائه وهل كان يبلغ حدا ينتهي فيه الى القناعة باعادة الملك والحافز الفردي ! أنا لا ارجح ذلك ولكني لا استبعده فيما لو عاش عشرين سنة اخرى فانفسح المجال الزمني امامه لهضم شيء كان ثقيلا جدا على مزاجه .. ومهما يكن من شأن الاحتمالات في ذلك يبقى القول الضروري الذي لم أقله بعد :

ان مصلحة الأحياء تأتي قبل وجاهة النظريات ومقام الموتى وهي بديهية في حد ذاتها ولكن المشهود على نطاق الزمان ان الاحياء قد يفدون الميت بأرواحهم وانهم مستعدون - كثيرا وكثيرا جدا - للذود عن جلال النظرية التي يؤمنون بها ، الى حد التضحية بالذات . والمنطق النظري يقتضي ان تكون التضحية من اجل عقيدة دينية وراءها شبح الجنة والنار بعد الممات أقرب الى الوقوع وأن يكون (الفناء في الله) عند الصوفي اقوى من (الفناء في فائض القيمة) عند الماركسي ، ولكن الواقع الذي رأيته بالعين وقرأته في الكتب يقدم نماذج من الطائفتين تساوت في الحماس للفكرة . لم أزل أقرأ في International Affairs كلاما لرجال ذوي وجاهة ومكانة بعدت بعدا هائلا ان يكونوا بروليتاريين يتظاهرون بأنهم من البروليتاريا بأنتسابهم الى دولة البروليتاريا ، ولم يزل الاصرار على التمييز بين الناس على أساس اختلاف انتمائهم الاجتماعي (الطبقي) من القوة بحيث انه فاق التمييز القائم على اساس اختلاف اللون فلا أبالغ اذا قلت ان الماركسيين (الأصلاء) يعتبرون الطبقية اقوى من الصفات البايولوجية فكنا نسمع بعدم قبول طالب ابوه كان غنيا في الجامعات بالدول الاشتراكية . ان فارق اللون ألصق بالانسان من فارق الطبقة لان اللون ينتقل بالارث ولكن (الثروة) لا تنتقل الى دم الاولاد ونخاعهم

الشوكى •• ودامت محاربة علم النفس في المعاهد بالدول الاشتراكية عهودا طوالا على اساس انها بدعة بورجوازية يقصد بها تلفيق دوافع لتصرف الانسان من غير طريق الكفاح الطبقي والتفاوت الاجتماعى عن سبيل الأهتمام الزائد باعماق النفس والعقل الباطن بمبعدة من الواقع الاقتصادى • ثم اصبح الأصرار على انكار علم النفس منقصة لثبوت كونه قائما على حقائق تجريبية فحصل شيء عجيب في هذا الميدان اذ وجدنا (اذكياء) الماركسيين يدورون حول الموضوع فيأتونه من البساب الخلفي فيقولون ان علم النفس الحقيقى هو علم النفس الماركسى • فيا للخجل من هذا التمويه الشائه ! قرأت لاناس كتبوا في New Time انهم بعد أن ظلوا سبعين سنة يرددون كون الحقيقة التأريخية الكبرى هى الفروق الطبقية اصيبوا بدوار اذ وجدوا بعد الانفتاح ان الحقيقة غير ذلك • قرأت لواحد منهم يقول عن نفسه انه ملحد ولكنه يؤمن بأنه ثمرة التأريخ الماضى بكل عقائده وآدابه وعنعناته وانه متأكد من ان خلو قلب الانسان من جزء من (الله) حتى وهو ملحد نقص كبير ويعدد اسماء من شخصيات الثورة ـ كما اعتقد ـ اشتهرت بالعنف والقسوة فيقول ان هؤلاء لم يكن في قلوبهم (الله) •

ياسيدى ! قرأت لعلمائكم الآثاريين الجدد كلاما في تأريخ العراق القديم استندوا فيه الى التنقيبات الأثرية التى اجراها علماء الغرب فأكبرت فيهم ـ علمائكم ـ هذه الدقة البراعة في اقامة استنتاجاتهم ولكن الذي آلمنى اشد الألم انى وجدتهم يتكلمون عن المجتمع العراقي القديم كأنه (مدينة نمل) ليس لها هم الا ضم الحبة الى الحبة وخزن العلف فهم لا يبتسمون ولا يغنون ولا يتزاورون في المآتم والأفراح ولا يعشقون ولا يكذبون ولا يصدقون ولا ••• ولا في كل أمر ينشغل به

البشر ، فعلماؤكم ، ياسيدى ، اسرى او دراويش المقولة المشهورة ان العمل خالق الانسان ، وهى ابعد ما تكون عن الصدق فالعمل الاجتماعى مخلوق الانسان وصنع يده وفتقة ذهنه والا صارت البهائم كلها بشرا لانها جميعا تعمل • لابد من بشر متميز عن البهيمة ليكون هناك عمل يقود الى التطور والأصح ان اقول : (عمل يطوره الانسان) فالعمل بذاته ليس له وجود مستقل حتى يطور او يتطور فما أقسى وأندح ان نجتر كلاما كهذا في واحدة من البديهيات لا لشيء الا لان انجلز قاله في واحدة من كتاباته •

تقول الروايات ان المؤمنين بمنطق ارسطو بقوا مصرين على صدق قوله ان الاجسام تكون اسرع في السقوط على قدر زيادة ثقلها رغم ان التجربة أثبتت ان ثقلين متفاوتين رميا من برج بيزا المائل فوصلا الى الارض في وقت واحد فامتنع على عقولهم ان التفاوت في التسارع راجع الى مقاومة الهواء التي يظهر أثرها في الاجسام الخفيفة •• وهكذا الى نهاية احوال لا ينتهى فيها القول من اصرار السذج على احترام باطل يعتبرونه مقدسا •

ان الزمن ياسيدى يتخطى الافكار المرحلية فمن اشد الاخطار على الفكر الانسانى أن يفرض عليه رأى محدد قاله واحد من العباقرة في يوم من أيام القرن الحالى أو الماضى او ما يقوله عبقرى في القرن الآتى • العباقرة لهم مكان محفوظ في سجل الخالدين وهم أحرياء ان يخلدوا مهما اختلفنا معهم في الرأى أو مهما جاء الزمان برأى أقرب من رأيهم الى الحقيقة • والبشر لا يكون منطلقا من قيوده بمجرد ان يكون خارج غرفة السجون فالقيود على فكره أشد عليه من قيود السجن لان السجن وقتى ولكن السجن الفكرى يلد أكثر من سجن

حقيقي واعتباري • وانه لأشرف للمخلص ان يكتشف خللا في فلسفته فيحاول تصحيحه من ان يضيف دليلا جديدا الى الادلة الموجودة في اثبات صحة فلسفته لانها اذا كانت صحيحة فقد كفاها مقدار الادلة الموجودة • أما ان يؤول الاخطاء ويستر على النقص ويعموه على التضليل فذلك منكر من اكبر الجرائم • وضمير المرء دليله في ذلك فانه يستطيع ان يقيس محاولته لتبرير الاخطاء على تبرير خصمه لاخطائه فهو بالبداهة يشمئز من خصمه اذا لجأ الى تبرير الذات بالتضليل فليشمئز من نفسه اذا فعله •

انه لغريب حقا أن يحصل الأصرار على التمسك باراء فرد بعينه في مجتمع يدعى انه حرم عبادة الفرد واحل محلها الايمان بالمجموع – وليكن المجموع البروليتاري مضافا اليه المثقفون – بل قد حصلت عبادة الفرد في شخص ستالين وفي شخص ماو وغيرهما من اساطين الماركسية ووجدنا مدنا تبدل اسماؤها أسماء ناس لم يتميزوا بفضل اخلاص أو انجاز أو فهم على حين خفيت اسماء جماهير المكافحين الذين ضحوا بأرواحهم أو تمت تصفيتهم فيما بعد جزاء على تمسكهم بالعقيدة • وتميل الظاهرة الى السخرية حين تتبدل الظروف فتنقلب ستالينغراد الى فولغوغراد او تنزل بعض الاسماء عن عروشها وتعاد اسماء اخرى الى اعتبارها الذى فقدته في واحدة من المصائب التى لا تحدث الا بين ناس هجروا التصرف المألوف الى التصرف الشاذ المستوحى من النظريات وغرائب ما تقول • لقد وجدت ماركسيين لا يعدون ولا يحصون غائصين في الأهتمام بانطباق اقوالهم على نصوص من ماركس او اقوال من لينين بأكثر مما يلتفتون الى نتائج آرائهم هم في واقع الحياة وهل هي مقبولة في طبائع المجتمع ! هم كالرجل

المتدين في اداء صلاته اذ يجاهد في اتقان طقوسها واركانها واخراج كلماتها بنطقها الصحيح ليقينه ان عاقبته في الآخرة مرتبطة بذلك فاليت الماركسي وجد علة ممائلة في شدة تمسكه بالنصوص وحرصه على التوافق معها فهو على اى حال يفقد اتصاله بالمصالح الدنيوية المبنية على الوقائع ويتحرى في الطقوس والنصوص عن ارجحية البطاطة على الطماطة وعما اذا كان مباحا له استعمال سلم جاره بأجرة • ومن هذا القبيل ما نسمعه في روسيا اليوم من جواز اجارة الارض لزارعها الى عشرات السنين فقد أمكن بها التحايل على منع تملك الارض مع الاحتفاظ بقداسة مبدأ المنع وهي صورة تذكرني ببعض ما ورد في رواية (حقل الحيوان) لجورج اورويل حيث يتحايل سادة الحقل الجدد على منع الخمر باضافة فقرة جديدة الى نهاية المادة القانونية فتصبح هكذا : تناول الخمر ممنوع •• الى حد السكر وهكذا في بقية المنوعات •

انا لست بصدد (التريقة) وتعاطي خفة الدم في الكتابة وليس من منهجي أبدا ان أنال من مكانة العظماء الحقيقيين فاذا وجدت احدهم على خطأ ـ حسب رأيي الذي لا أملك غيره ـ كان أسفي على ارتسام خطوط الخطأ في صورته وليد شعور لا يتصل بالمصالح قطعا وانما هو من قبيل اسى على وقوع لطخة في لوحة الجيوكوندا ويبقى بعد ذلك ان اعانى هم الناس الذين سيعانون تبعة خطأ ذلك العظيم •

كان عملا تأريخيا نبيلا وضروريا انزال ستالين عن عرشه لأنه كان مجرما وليس عظيما والا كان جنكيزخان وهتلر وكل مردة التأريخ عظماء • وكان جميلا ومطلوبا وضروريا أيضا الاعتراف بقيادة وريادة لينين بما له من فضل في ارساء الدولة السوفيتية التي تفتخرون بها •

وكان من قبيل حكم البديهة ان يحتفظ ماركس وانجلز بمقامهما الملحوظ في محراب التأريخ ولكن :

ليس من الجائز قطعا ان ينصب اولئك (انبياء) وأن تعتبر تعاليمهم وفلسفاتهم او آراؤهم (الهامات) فمهما تكن عظمة وعبقرية الانسان الفرد فليس من المنتظر ان تفيض قدراته الريادية عن مشاكل عصره لتسقى حقول عصر لاحق • وبفرض انه استطاع بنظره الثاقب ان يخترق الزمان الى ما بعد نصف قرن أو أكثر فالمؤكد ان عباقرة الزمن اللاحق اوضح رؤية في واقعهم الذين يعيشونه وذلك لاسباب اربعة حاسمة :

اولها ان الواقع المشهود أوضح واكثر انفراجا للنظر من واقع يتصوره عبقرى •

ثانيها ان العلوم والمعارف والخبرة تتضاعف بنسبة هندسية من عصر الى عصر •

ثالثها ان تزايد عدد السكان يوفر احتمال تزايد عدد العباقرة •

رابعها ان التطور التأريخي في كل وجوهه ومستوياته يلد مشاكل وحلولا لم يكن مثلها مولودا في عصر عبقرى طواه الموت من مئة سنة او مئتين •

ما كان لعبقرى العباقرة ان يتكهن في سنة ١٩١٩ ان المتغيرات في السياسة والمصالح ستحكم بحصول تقارب بين دولة امبريالية ودولة شيوعية على حين يكون التنافر قد تأصل بين دولة شيوعية واخرى شيوعية • بل ان لينين لم يمر بوهمه ان تتفق الدول الاستعمارية مع روسيا الشيوعية للقضاء على المانيا النازية الامبريالية الرأسمالية ولا سمح

لنفسه أن يقبل بأحتمال اشتباك دولتين شيوعيتين في الحرب وتتفرج عليها دول هي في عرف لينين طرف النقض لكل ما هو شيوعي بروليتاري وانها محكومة تأريخيا بمعاداة الشعوب حتى تختفي انظمتها الاستغلالية في مجرى التطور المحتوم .. والكلام في هذا الاتجاه يطول الى غير نهاية وهو في وضوح البديهية التي لا تقبل المناقشة الا من باب المكابرة . وخلاصة القول في موضوع (التوجه الى لينين) انه ينقلب الى الارتداد ضد المصلحة المطلوبة في المراجعة اذا جاوزت حد الاحترام المحض الى التطبيق العملي لتوصياته وآرائه ، فانه من قبيل البديهية ان (غورباتشوف) في يومه هذا اوضح رؤية لمشاكل بلده مما كان منتظرا من لينين وانه تبعا لذلك ولكل منطق سليم أدرى بالحل الصحيح لها من لينين فان من تلك المشاكل مقدارا كبيرا وخطيرا لم يكن موجودا على ايام لينين بل ان قسما منها ، أن لم نقل اكثرها ، وليد آرائه وتطبيقاته المستوحاة من الماركسية ومن اجتهاده الشخصي .

غير ان لنا معيارا أدق وأصدق من مجرد معيار الرأي لمعرفة ما هو صالح وغير صالح من تطبيقات الاشتراكية وهو رأي جماهير الشعب الذي لا تأويل فيه . واول خطوة في هذا المسار هو امتناع القيادة من فرض النظام المطبق منذ الادهار والادهار على انه انجيل جديد لا يقبل الامتحان والا فلن يكون البيريسترويكا والغلاسنوست الا تقوسا اعتياديا في بعض مواضع الحلقة المفرغة Vicious Circle

التي تدور فتصل الى نقطة البداية من المشاكل المتسلسلة المتناسلة بعضها من بعض . انا لا أقول بترك الحبل على الغارب للعبث بنظام قائم له شرعية كشرعية النظام السوفيتي القائم على ثورة شارك فيها

الغالبية العظمى من شعوب روسيا وانما الذى أقوله هو ان الثورة ليست أكبر من الشعب بل لا تساويه ولا تقاربه في المقدار فالمفروض أنهـا وسيلة حقق بها الشعب في وقت من الاوقات ما كان يتراآى أنه مصلحة لعامة الناس في صياغة بروليتارية فهو بهذا اراد مفتاحا لقيوده وليس قيدا يربطه بالجنة والنعيم المتصور سنة ١٩١٧ فالمعول عليه هو خيار الأكثرية في معرفة ما هو واجب عمله فلعل الأكثرية تختار ان تجوع وأن تعرى بعض الوقت او أن تمشى على القدمين بلا سيارة ، فقد فرضت عليه المذلة بلا اختيار في ايام ستالين واغلب الوقت بعد ذلك ! ! كل الماضى في تأريخ اى شعب من الشعوب هو تراث فقط وليس حياة تمارس اليوم وغدا بالضرورة وعلى سبيل الحتم : والتراث بعضه كريه وبعضه جميل فالجانب الجميل منه بأحداثه وأشخاصه يبقى متألقا في الذاكرة ودافعا الى طلب المزيد من التقدم واطايب الحياة مصحوبا باهداء التحية وعرفان الجميل لارواح الراحلين المخلصين • والناس في معتاد الأحوال أعقل من ان ينبذ شيئا جميلا ورثه من الماضى فما رأيت أحدا يحرق بيتا ورثه من أبيه الا اذا كان الوارث مهووسا أو تحكم مهووس في عقله او ضايقته احوال لا طاقة له بأحتمالها فتصرف كالمجنون وما هو مجنون ولكنه مقهور يتساوى عنده العقل والجنون • ورأينا من ذلك نماذج كثيرة من فردية وجماعية فوجدت آحادا أحرقوا أنفسهم خلاصا من تحكم اهلهم فيهم ووجدنا الفلاحين الروس يقتلون بهائمهم ودواجنهم بالجملة في بعض سنوات ما بعد الثورة ، وتذكر الرواية في عودة العشرة آلاف يونانى بقيادة زينوفون أن عشيرة برمتها أحيط بها فرمت بنفسها من فوق ذروة عالية رجالا ونساء واطفالا • ان لنا في مسار التأريخ صورا هائلة لا تحصى من نزول الكوارث بالشعوب على يد الطغاة المجرمين فلنسمح لهذه الشعوب أن تستعمل

حريتها على الوجه الذى يرضيها وليكن من ذلك أن تلحق بعض الأذى بنفسها بإرادتها تسوف تداوى نفسها من آثارها على عكس ما اذا كانت مغلوبا على أمرها فهى تتحمل جروحها وتضطر الى انتظار الدواء من يد جارحها وشتان ما بين الحالتين .. ان انسانية الانسان مرتبطة بحرية الأختيار حرية منضبطة متحضرة ولا يمكن ان ترتبط بالخضوع المنضبط المتحضر !! منذ بضع سنين أضرب عمال المناجم في ويلز بريطانيا واعتصموا فمنعوا الحكومة نفسها من استثمار تلك المناجم . ودامت الحال اكثر من سنة - كما اتذكر - وهم يتقاضون رواتبهم ثم انتهى اضرابهم على نحو من الأنحاء بلا دم ولا اعتقال . ولربما كانوا متعنتين او متجاوزين حدود المصلحة القومية فقد بلغت الاضرار مئات الملايين من الدولارات كما أتذكر ولكن الاضراب كان قانونيا فهو بهذا الاعتبار حق أقره النظام الأجتماعي على نفسه وباختياره فلا لوم على العمال في ممارسة حقهم ولا يكون عليهم لوم اذا تنازلوا عنه في بعض الأحيان باختيارهم ولكن اللوم كل اللوم عليهم وعلى المجتمع البريطاني اذا حرم العمال الدفاع عن حقوقهم بوسيلة قانونية فعالة يستطيعون بها ان يقفوا بوجه الحكومة في قوة وثبات ولا يوجد ثبات في حق الاضراب اذا لم يكن مصحوبا بصرف الأجور خلاله ما دام الاضراب قانونيا . ونقل لى شيوعى عراقى عريق في شيوعيته انه كان في موسكو في بعض سنوات حكم خروشجيف فأضرب العمال في بعض المصانع واعتصموا فيه فحاولت الحكومة اقناعهم بالعدول عن الاضراب عن سبيل الزعم أنهم أصحاب المصلحة فكيف يضربون ضد أنفسهم ! ولكنهم استمروا .. فما كان من الحكومة الا أنها في يوم من الأيام بعثت قوة مصفحة اقتحمت بها المصنع فأسحق من اسحق وقتل من قتل وسيق الاحياء منهم كلهم في

سيارات سوداء كبيرة مسدلة الستائر فنقلوا الى حيث لم يسمع بهم أحد . ان ظاهر الأمر يقتضي ان تكون الصورة معكوسة فيضرب العمال بحريتهم في دولتهم ويساق العمال في ويلز وغيرها من البلاد المماثلة الى المصير المجهول . والعلة في انعكاس الصورة على الشكل المتقدم هي ان هناك انجيلا في دولة خروشجيف فوق قدرة الشغيلة واكرم من حياتهم ووجودهم فليست هناك كفالات دستورية وقانونية تصون حياة الشخص وحريته وممتلكاته من جبروت ذلك الأنجيل المقدس على حين لا يوجد مثل هذا الانجيل في القانون الانجليزي الذي ينظم العمل فهو محصول تطور معتاد لا قدسية فيه كما يتطور العشب الاخضر الى قش أصفر في بضعة أشهر ومعه محض البذور الناضجة للنمو في عام قادم .. ولا ظل للحقيقة في قول من يقول ان هذه الحقوق منحت للعامل الانجليزي من باب التخدير ابقاء على نظام الاستغلال فهو كلام منقوض في ذاته تماما كالكلام الذي يحاول تبرير سكوت العامل الروسي او البلغاري بدعوى أنه صاحب العمل وصاحب الحكومة فكيف يعترض على نفسه بالمطالبات والمظاهرات والاضرابات !! فالنظام الانجليزي بكل عيوبه ومزاياه انعكاس لمزايا وعيوب المجتمع الانجليزي المبني على حرية التملك والرأي والتصرف ضمن حدود قوانين تقررها الأكثرية التي لا تزيف فيها . مهما يكن من علمانية النظريات والآراء فأنها جميعا ستئول الى صفة (التراثية) ككل البدائع العقلية التي رشحتها عبقرية فلاسفة اليونان أو أوروبا أو مفكري الشرق فأن واحدة منها لا تجد لنفسها اي حيز في التطبيق في هذه الأيام ، فقد نسخت بما هو أبدع منها .

تتداعى الى فكري امور لا نهاية لها من مجرد التفكير في عنوان

(التوجه الى لينين) فأذا ركزت فقط على فقرة واحدة جاءت في نهاية الصفحة ٢٤ من الكتاب تقول : (والفترة اللينينية على جانب كبير من الأهمية) وقد نقلتها قبل بضع صفحات وتنتهي بهذه الجملة : (تستند استنتاجاته على تحليل الوضع التأريخي الفعلي) فالذى هو واضح لعينى من (تحليل الوضع التحليلى) الذى التقى به في كتابات لينين في الفترة ما بين ١٩١٧ وبين ١٩٢٤ هو انشداد لينين بعنفوان طبعه الى بناء احكامه على اشد الاحوال والحقائق تأزما وضيقا وتوترا في أيامه فكأنه يكتب التأريخ بسهم مغموس في مسائع نارى ويستعرض به عالما خارج دنياه الاشتراكية كله شر وظلام والتهام • انه يصور الناس من غير البروليتاريا وصفا لا يمكن ان يكون البشر المتصف به قابلا للتطور والتثقف والتعلم والفنن لا يفلت في ذلك حتى الاشتراكيين من مشاركى الدولية الثانية الذين لا يتوافقون مع رأيه • فكيف نستطيع ان نتصور ان للجامعات الغربية تقاليد محترمة لا تفك منها وان للمحاكم في بريطانيا ، مثلا ، سوابق قضائية لا تستطيع الامبراطورية كلها ان تزحزحها عنها فالجامعات والمحاكم والمؤسسات الدينية والدنيوية في البلدان البرجوازية الغنية كلها احابيل شيطانية في كتابات لينين • والمقصود غالبية كاباته والشارع الرئيسى في تفكيره وليس شذرات قد تتناثر هنا وهناك في المناسبات فالشيطان نفسه يحظى ببعض الكلام الهين في تشمين حجته القائلة انه هو من نار وان آدم من طين •

من دون أن انتقص من خطورة لينين اى شيء أقول ان خطورته في انجاح الثورة كانت وقت جريان الثورة نفسها لحاجتها الشديدة والحاسمة الى ثبات لينين الذى لا يتزعزع وايمانه المطلق بها وبنفسه

فلم يكن بالامكان نجاحها قطعا من دون هذا الحسم والجزم والحدية في مواقف قائدها • الاشتراكية كانت مقحمة على طبيعة الثورة من جانب لينين وبعض أصحابه الذين لولا ارتباطهم بلينين لما استمع اليهم أحد • بعد النجاح التمهيدى والشكلى لفرض الاشتراكية على الحركة كلها وبعد اجتياز مرحلة الخطر المباشر عليها صارت خطورة لينين في الهيمنة على مسارها ولاسيما من جهة التصدى بجرأة لتصحيح ما قد يحصل فيها من انحراف او لتعديل ما يظهر عليها من وجوه النقص في التطبيق • وكان مرضه المتزايد عائقا خطيرا في هذا الصدد حتى انه لم يستطع ازاحة ستالين من مواقع مسئوليته • بعد وفاته ثبت بالدليل القطعى انه فقد كل خطورة عملية فقد استحال على اى انسان آخر ان يجمع في شخصه ذلك الزخم اللينينى الهائل الذى كان كفيلا بايقاف الخطأ عند حده وتعديله بما هو اوفق • لم تكن بأحد جرأة يفتح فمه بكلمة تشير الى وجود خطأ فيما يجرى فصار الركون الى التستر على الخطأ والنقص وصار الالتفاف حول الاهداف والنصوص والشعارات بالتمويه والتحريف والارهاب حتى استقرت شيطنة ستالين برسوخ كامل في مركز القيادة • كل امجاد لينين وافكاره ووصاياه لم تكف لردع الأنحراف عن اى شيء مهما كان صغيرا فكل ما اشتهاه المنحرف الأكبر صار دينا وانجيلا جديدا حل محل اللينينية والماركسية والجماهيرية وجميع الكلمات المماثلة التى تنتهى بالياء المشددة لتصب في كلمة واحدة هى (الستالينية) لتحكم روسيا وعالم الثورة البروليتارية لأكثر من ربع قرن واستمر شبحها رغم اللمسة التى احدثها بها خروشجيف مهيمنا على السياسة الروسية حتى ظهور البيريسترويكا والغلاسنوست • انتهى دور لينين بموته بل كان منتهيا باشتداد المرض عليه وقصور عنفوانه المتدهور عن أن يكون كافيا لدفع

الثورة نحو الاتجاه الذى كان يريده لها . واليوم اذ تعلنون عن وجوب اعادة البناء فليس ذلك بفضل لينين قطعا بل انه برغمه وباتجاه مغاير للحدية المأساوية التى اتسم بها طبعه ووسم بها الثورة أيضا . انكم اليوم تتعاملون مع دنيا كان لينين مصرا على هدمها باعتقاد انها منهدمة في ذاتها تاريخيا على حين ان غالبية الشعوب السوفيتية من غير المستفيدين من البيروقراطية تميل الى التمتع بالفسيح الممنوعة عليها وتريد الأخذ بالاساليب الديمقراطية الحقيقية التى لا تأويل فيها . أقرأ لكتابكم من عامة الشعب في المجلات والصحف التى تصلني في الأيام الأخيرة رغبة صارخة في تعديل الاسس التى أقامها لينين للاشتراكية وصار تحريفها فيما بعد .. اجد لديهم رغبة أكيدة حارقة في الكف عن مدح ما هو مكروه والتظاهر بكراهية ما هو محبوب . يبدو أنهم شبعوا حتى القرف من غمس كبيرة الخبز في قصعة الشعارات وعسل الايديولوجيات وتفصيل الملابس على مقاسات الحلول الجذرية والطبقية وركوب سيارات اشتراكية .. انه لمن الكوارث الكبرى في شعب من الشعوب ان يبقى الى نهاية الزمان مقيد الفكر والاحساس في نومه ويقظته بالغرق في محاسبة الذات : كم انتجنا اليوم ؟ كم كان ممكنا زيادته ؟ كم طال بنا الوقت ؟ كم هو من فضل تعاليم ماو أو انجلز او زدانوف ؟ كم أمامنا من طريق نقطعه حتى نصل الهدف الذى رسمه الحزب ؟ هل خيوط النسيج تبدو او لا تبدو .. وهل .. ام انه ؟ متى استطيع في حياتى زيارة باريس بدون رقيب حكومى ؟ ما اشهى لدائن نيويورك !!

اذكر مما قرأته في رواية باسترناك المشهورة قولا لأحد شخوصها في بعض أيام ثورة اكتوبر ان مرضا غير ملحوظ قد انتشر

بين الناس هو حدوث تزيف دموي خفيف في اماكن من اجسامهم نتيجة طول مدحهم لما يكرهون وشتم ما يحبون . قد يكون هذا صحيحا وقد يكون من خيال الروائي ولكن اليقين الذي لا يأتيه الشك هو ان بقاء الافكار مشدودة على مدار الأبد الى بؤرة ضوئية مزغللة للعين في صفحة الماضي المنطوي يصيب العقول بالكلال والملال فيفقدها القدرة على الحماس للنظر بطلاقة وجرأة الى الحاضر والمستقبل فكأنها تنظر الى الاشياء من خلال نظارات غير مقيسة على درجة قوة العين .. لقد وجدنا في بلدنا ان المتدينين الذين يبالغون في استكمال شرائط الوضوء يصابون بالوسوسة فلا يكادون ينتهون منه الا بشق النفس . ووجدت المناضلين من عامة اليساريين الذين أصبحوا أسرى طقوس الشعائر السياسية تزيغ عيونهم وتضطرب حركاتهم عند القائهم بالناس لشدة احترازهم من تحية ومجاملة لا تستسيغها الايديولوجية الطبقية . وجدنا نساء مشحونات بالافكار الثورية رحن الى حفلة عائلية فلما وطئت أقدامهن عتبة الباب قالت رائدتهن وهي تضرب الأرض بقدمها : سنهدمها !! فما أجملها من تحية في الشكر على المجاملة . وهكذا شأن البشر في كل حقل وباب : لا أمان له من أسر العادة وقبضة العقيدة . ان التاجر البرجوازي لا يراجع مصدرا مقدسا ليرى ان كانت تجارته موافقة لنصوصه على حين يختنق ممثل التجارة في دولة أيديولوجية من تهيب اللحظة التي يوقع فيها على اتفاقية عقدها مع جهة (متبرجزة) فهو محكوم بخيال الشعارات الثورية التي تلح على تنقية المعاملات من (الاستغلال) وغرامات (فائض القيمة) وما الى هذه الأحابيل النظرية التي تقتل المصلحة في مهدها . يتساوى (تحليل الوضع التاريخي) مع تنظيم حفل

مصارعة ، مع عقد صفقة بيع ، مع انجاز مشروع دواجن ، مع خطبة فتاة ، مع الشروع في السفر الى اى مكان ، يتساوى كلها مع غيرها الذى لم نذكر في أنها جميعا يجب أن تتم بسلاسة ودون عقد وكوابح وموانع من التدقيق كى يتم انجازها على وجه منسجم مع الطبيعة البشرية السوية •

اسمح لنفسي أيها الرئيس غورباتشوف ان اتوسع في شرح رأيى بما يقربه من القناعة أو ما أريد له من الوضوح فأقول : ان اقامة الدولة السوفيتية سنة ١٩١٧ كانت بطبيعتها مثل تحويل مجرى النهر عن وجهته ولم يكن ذلك ممكنا الا في ظروف سنة ١٩١٧ اذ بلغت حالة الخذلان والهزيمة حدها الأقصى في تكريه الناس من النظام القديم فتمكن لينين بعبقريته الفذة من دفع كل القوى نحو تغيير مجرى النهر • بعد ذلك الفوز الأولى بدأت صعوبات ادامة النهر في الجريان لأنه تحول عن مجرى محفور من القديم الى حيث لا يوجد مجرى يسيل فيه النهر فكانت عملية أشبه بعملية حفر دائم لشق قناة جديدة فلم يكن من المنصور او المقبول اعادة وجهة النهر نحو المجرى القديم • فالصعوبات التالية لنجاح الثورة حتى يوم (اعادة ابناء) نشأت من الغربة بين واقع موروث وبين افكار وتصورات ومناهج وقيم وسلوك جديدة تطلب واقعا يلائمها فليس صحيحا ما يزعم من ان الثورة البلشفية كانت حتمية تأريخية تمهدت لها امكانات النجاح وأنها جاءت محققة لما كان الواقع يطلبه فهي اول ثورة طبقية بمعناها الكامل والصحيح واول ثورة لم يطلبها الواقع الا بمقدار ما كان لينين وصحبه معتبرين جزء من ذلك الواقع •• انها ثورة على الورة الأصلية طلبت ما يشبه المستحيل بخلق دكتاتورية البروليتاريا

وقد بقيت هذه الدكتاتورية مستحيلة حتى يومنا هذا فلكي يكون العامل أو الفلاح حاكما يجب عليه قبل كل شيء ان يفقد صفة الكادح. اما ان يكون مجموع الكادحين قادرين على الحكم فهو خيال آخر أمكن خلقه في الشعارات والكتابات فقط باعتبار الحزب البلشفي وكيلا عنهم في الحكم . ان عملية حفر مجرى جديد يوهم بأنه يحتوى ماء النهر القديم كله مستمرة الى كتابة هذه السطور ومصحوبة بمظاهر لا تنتهى من الغربة مع الواقع المألوف الذى يعيش فيه الناس المعتادون من استراليا حتى الاسكيمو في الجرنيلاند . ومن مظاهر هذه الغربة الرجوع الى الارشيف النورى باستمرار للعثور فيه على صيغ مرنة يمكن من خلالها التظاهر بأتباع تعاليم ماركس ولينين في كل اجراء يقتضيه روح العصر في بعد ملحوظ مع لب لباب الماركسية اللينينية ، أو باتباع صيغ جديدة تقتضيها ضرورات العصر مع تحاشى اصطدامها في العلن مع أناجيل البلشفية ـ مثل أيجار الأرض لمدة طويلة ـ والانتخابات الأخيرة نفسها مع كونها طفرة الى امام بالقياس الى ما كان يجرى قديما فهى صورة من صور الجمع بين المتناقضين في عملة واحدة بوجهين فهى انتخابات حرة كحرية الانتخابات في النمسا أو كندا ولكنها لا تستطيع المس بأى من اسس النظام الطبقى الاشتراكى المحفوف بصيانات المنع والقهر . لقد علمت الدنيا ما صنعته الصين اخيرا ـ من نحو ٢٥ يوما ـ مع المطالبين بالديمقراطية ، وارجو من اعماق قلبي الا يحدث عندكم اى شيء يعيد الحالة الى ما قبل اعادة البناء ولكنى اعلم أيضا ان الآلة الجبارة التى ادامت سيطرة ستالين ومن جاءوا بعده من جماعة التحجر لم تزل موجودة وانها مستعدة ان تميط سماط الديمقراطية والانفتاح اذا بدرت بوادر خطيرة تطلب تغييرات جذرية .. اعلم هذا وأكثر منه امورا واحتمالات تفوق قدرة

أنصار اعادة البناء في احداث التغيير الذى يطلبه عامة الجماهير .

لكنى ياسيدى ملزم ببيان رأيى على أكثر ما يكون من الوضوح فأنا لا اشكل برأيى خطرا على مصير اى شىء في هذه الدنيا فاذا كان قصارى رأيى أن ابارك ما هو واقع فقد انتفت الحاجة اليه ابتداء . وبفرض ان عملى هذا لا يخرج عن ان يكون حوارا مع النفس بمبعدة كلية من ان يكون له أثر في الاحداث سواء عندكم او عند الجار أو عند أهل بيتى فانه أشرف له وأكرم لى ان اقوله بلا مواربة وأكشف به الوجه الحقيقى للموضوع الذى اتناوله باستخلاصه من غلالات التبريرات والتهميشات الباعثة على قناعة العامة . فبزخم من هذه الحقائق الاعتبارية اقول في راحة ضمير تامة : ان التعلق بشبكة المبادىء والايديولوجيات القديمة الموروثة له صورتان بنتيجتين مختلفتين الى اقصى حد ، فاذا مثلنا لهذه الشبكة بنسيج العنكبوت فانها بالنسبة للعنكبوت نفسها هى الوسيلة الوحيدة الفعالة والمضمونة لاصطياد القوت من فراشة ونمل وغيرها . وتمثل دور العنكبوت في المجتمع الأنسانى عامة ، الجماعات المستفيدة من دوام الاحوال وتمثله عندكم البيروقراطية وأصحاب الامتيازات من الحزبيين وما يتصل بهما من الحواشى . ويمثل دور الضحية العالقة بالنسيج مجموع الناس في بلدكم وغير بلدكم من البلدان المبتلاة بحكم الطغاة . ويعتبر من الخيوط القوية في نسيج الأصطياد الرجوع الى آراء ناس حبكوا هذا النسيج في وقت لم يكن لهم فيه خيار آخر الا التخلى عن الثورة ولم يكن لهم فيه فهم من نوع آخر للتأريخ وتعليل الاحداث الا ما يكرهونه من الارتباطات البرجوازية والاقطاعية والكهنوتية ولا أجد ما يحملنى على الشك في أنهم كانوا اول الأمر يرون في كل خيط يضيفونه الى خيوط الشبكة زيادة قوة في

الوسيلة التى يتم بها خلاص الناس من احابيل الشياطين التأريخية ، وانه بمثابة الرشاء الذى يصل به الدلو الى الماء لشاربه حتى اذا تأصلت الثورة بدأت الخيبات من الآمال المنعشة تلاحق وكان الوقت قد انقضى على تدارك اسباب الخيبات الا بزيادة الخيوط في النسيج ، وجباء مرض لينين ، خالق الثورة الطبقية ، مانعا كليا من المحاولة الجدية لتجنيب الناس الآثار السلبية لأهداف غير قابلة للتحقيق . وكان المظنون قبل الثورة وفي يومها الأول انها من قبيل الثمرة الناضجة لا تحتاج الا مد الذراع لقطفها فقطفها ستالين فكان بحق هو الوارث التأريخي لها لا الشعب السوفيتى ولا الحزب البلشفى ولا اى وارث شرعي آخر يتلقى نصيبه من حكم محكمة عادلة لها قانون مفهوم وكان ستالين بتجرده من الرحمة والانصاف خير من يقوم بدور المهندس للدوام على شق القناة الجديدة لمجرى التأريخ فكان بحق صورة مكبرة الف مرة للفراعنة القدماء الذين كانوا يعبدون ويسخر الشعب كله لبناء اهرامهم المحيرة في وقت واحد فستالين اله بشرى على مقاس القرن العشرين يستهزىء بالصفوف المتقدمة من مثقفى عالم اليسار (النورى !) ووراءهم غمار انصاف المثقفين ومئات الملايين من مساكين هذا الكوكب ، كلها لسان واحد ونغم متصل في تمجيد ربهم المعبود وممهد سبيلهم الى النعيم ، الا ملايين ممن سخرهم للعمل الميت وملايين الفلاحين الذين قبرهم مع آمالهم في قطعة ارض يحرثونها بكرامة على مزاجهم ، فهؤلاء صاروا حطبا انبعث منه الدخان الذى كان يتسبب في نزوع قطرات دموع غبشها الدخان . لقد استمر ستالين بنجاح باهر في شق القناة بل كان قادرا على توسيعها بأى مقاس شاء فهو متأله يقول للشىء (كن ! فيكون) ويتمرغ على تراب نعليه الوف العباقرة من الكتاب والفنانين والمنظرين والمفكرين ، لعنهم

الله ، يعزفون نشيد الانشاد في تدشين (الالوهية المادية) التى تمثلت فيه . ولو شاء لاستطاع ان يمسح لينين ويقبر الماركسية علنا وجهرة بدليل أنه استطاع في تمام اليسر والسهولة ان يفرغ الثورة من كل محتوى ويعطل الحزب تعطيلا مذلا ويعتبر الشعب كله قطعان غنم ويصرع الوف المخلصين بتهم وهمية او بلا تهمة اطلاقا ثم يأمر ملايين الثوريين في الداخل والخارج بالركوع فيسجدون !! لكنه كان ذكيا فركب مناكب الماركسية والثورية وامجاد لينين يسوقها حيث يشاء وعلى النحو الذى يشاء فهو في هذا مثل دور المتفضل على الشاة بعدم ذبحها ولا يقصد الا حلب ضروعها . بعد موته خفت قبضة الحكم ولكنها بقيت قادرة على عمل ما تشاء ان لم يكن بفضل قدرتها الذاتية فبفضل انقياد الشعب كله عن سبيل قانون القصور الذاتي لاعتياده على العيش بلا ارادة . واستمر حفر القناة طول الوقت حتى حل يوم لم يعد الاستمرار فيه مأمون العاقبة بما حصل في الدنيا من تطور هائل في كل الوجهات وأصبح تجاهل الواقع بوجهه القائم في كثير من مناحي مجتمعكم وبوجهه المبتسم في جواركم على شطآن البلطيق ضربا من خديعة النفس وتقيض لحبس حظ البلشفية والسوفيتية ان برز رجل مثلك ورفاق لك مؤمنون معك بالواقع الجديد وضروراته كى يفتحوا عيون اهل الدار في الوطن الاشتراكى على حقائق الدنيا الواسعة لمعالجة الحالة التى آل اليها الواقع بطول تجاهل الحقائق واجترار صيغ اصبحت أثرية ـ اقولها أثرية وهى لم تكن قط واقعية ـ وهناك تفاصيل لا نهاية لها في كل شيء ضمن محتوى الاشتراكية الماركسية في التطبيق عندكم لا يكاد واحد منها يجرى التعامل معه حسب مزاج الانسان ، ابن الطبيعة ، استعير له مثالا من خارج روسيا في بلد يطبق مثلكم اشتراكية ماركسية واقصد به الصين . فقد قرأت

ريبورتاجا مصورا مشوقا رائعا في صحيفة معتى بها يصف انجاز الشباب الصيني تسلق قمة (افرست) من داخل بلادهم لا من الجانب الهندى فكل شيء في هذا الريبورتاج جميل ورائع حتى يبلغوا مسافة المئتى متر الأخيرة الى قمة الجبل فيمضى الريبورتاج ليصب ماء باردا على حماسنا وانبهارنا ليقول : ان هؤلاء الشباب خطوا خطواتهم الأخيرة المتعسرة حسب تعاليم الزعيم ماو .. ولو استحضر متسلق الجبل تعاليم ماو في تلك الارتفاعات الشاهقة لزلت قدمه الى قعور الوديان .. وهكذا شأن المتعامل مع حقائق العصر التى تتلاحق فيها المستجدات فهو يخسر قضيته بالرجوع المتكرر الى ارشيف الراحلين يستمد منه تبرير عمله .

لو تصورنا في الخيال ان ماركس اعيد الى الحياة بكل قابلياته فأنه بلاشك يحتاج الى بعض الوقت حتى يتفهم ما هو جار على سطح هذا الكوكب الذى تركه منذ اكثر من مئة سنة ولا يقل لينين استغرابا عنه وهو يطالع شيئا ما توقعه قط .. وسيتعب كثيرا حتى يستوعب الأحوال التى فرضت اعادة البناء والغلاسنوست : سواء كان الموضوع المتداول على أيامنا قضايا علمية أو فلسفية او سياسية او اقتصادية او من أى صنف كانت فأن ابن هذا العصر له الحق ان يكون استاذ الاجيال الماضية ومكتشف اخطائهم ومصحح هفواتهم ومكمل نواقصهم لا أن يتتلمذ عليهم الا في شأن الدين الذى له صفة الديمومة . بل ان الدين نفسه يضطر الى تبديل مناهجه حسب مقتضيات الزمان والمكان والا هجره الناس ، لكنه على اى حال يتميز عن شؤون الدنيا بأرتكانه في الأصل على مبادىء غير دنيوية ... اسارع فأسبق قلمى لاستعير من الصفحة ٢٥ كلاما يقتضيه هذا المقام فقد جاء فيه بصدد التوجه نحو اعادة البناء ما يلى : (وكان من الواضح ان الترميم والترقيع

التجميلي ليسا بكافيين) وليس من شك ان الرجوع الى لينين وماركس في نصوصهما المحددة يتجاوز ضرره حدود الضرر المتأتي من التجميل لانها نصوص تحكم بداهة الاشياء ان الزمان تخطاها الى غيرها وارجو لك التوفيق فيما تختار .

بعد التوجيه الى لينين نصل الى عنوان جديد هو :

برنامج أعد بعناية وليس اعلانا طنانا

وهو يستغرق ١٢ صفحة من الكتاب يتضمن نقاطا غير قليلة تستوقف المتأمل ، أترك أغلبها لتعذر الانتهاء من كلها تعليقا ونقدا وبيانا في وقت مقدور عليه .

لي كلام خاطف في جملة وردت بصدر موضوع العنوان تقول : (بدأت مجموعة من قادة الحزب والدولة تحليلا شاملا لحالة الاقتصاد ، وأصبح تحليلهم بعد ذلك اساسا لوثائق البيريسترويكا . لقد صفنا الافكار الاساسية ..) .

ربما كان ما فعلته المجموعة المذكورة هو الحد الممكن المتصور في حالة دولة كالاتحاد السوفيتي تحصر خبراتها في اشخاص مسؤوليها الا اذا كان الموضوع يتطلب الاستعانة بالتكنيك الأجنبي او حالات نادرة لا تخطر على الذهن . فالملحوظة الاساسية ان هذه المجموعة من الحزبيين والمسؤولين الحكوميين هي نفسها جزء من المشاكل التي نجمت في الاقتصاد وغيرها . ومما لاشك فيه ان الارتباط الآيديولوجي بالاشتراكية وفكرة الطبقية وتصورات فائض القيمة والاستغلال يحصر هذه المجموعة واية مجموعة اخرى مماثلة ضمن

حيز محدود من حرية الاختيار لما هو ضرورى من طرق العلاج فـأن هذا الارتباط نفسه كان من الاسباب الكبيرة التى دفعت القادة والمسئولين الى تخطيط للاقتصاد والاجتماع والثقافة منزه مـن شوائب البرجوازية والتفاوت الطبقى ! فالمنتظر ، والحالة هذه ، ان تكون الدنيا المحكومة بالحزب الواحد صورة مختلفة للمجتمعات التى تأخذ بغير الاشتراكية الماركسية فيكون من باب البديهية ان تدلهم وتكفهر الاحـوال فـي سويسرة والدانمارك بقدر اشراقها وازدهارهـا في بولونيا وبلغاريا وان تكون برلين الغربيـة مغلقة الابواب على ساكنيها اذا كـانت برلين الشرقية مفتوحة الابواب على مصاريعها .. وان تكون الصحافـة مقيدة بما يكتم النفس في النرويج اذا كانت صحافة رومانيا متمتعة بأقصى حرية وهكذا في كل مناحى الحياة . لست اشك لحظة في صدق نيـة هـذه الجماعـة واخلاصها الكامل للعمل الذى تكفلت به فى البيريسترويكا ولكنى لست أشك لحظة واحـدة أيضا ان تفاصيل الحياة في السوق والحقـل والمعمـل والملبن والبيت والشارع والمدرسـة ودور اللهو والمقـاهى وحوانيت البقالة والبزازة والعطـارة وصبغ الاحذية ... الى نهـاية قائمـة الوجود الاجتماعي لا يتصورها ولا يحيط بها ولا يقوى عليها ولا على متطلباتها اية مجموعـة من البشر يدرسون المشاكل فـي الغرف والقاعات فأن استعانوا بالمتحرين ومتسقطى الاخبـار وجـامعى الحـوادث فأغرقوهم هؤلاء بفيوض المعلومـات لاستحال عليهم ان يستوعبوها ويتذكروها فـاذا ذكرتهم الكمبيوترات استحال عليهم ادراك الترابط الحي بين جميـع منـاحي الحيـاة ومرافقها المتمثلة في تلك الاكوام من المعلومات التى جوتها الكمبيوترات . فاذا كان خيط الدوبارة صالحا وكـان نعل الخيول فاسـدا في السوق كـان ذلك دليـلا على حالة غير صحيـة في الاقتصاد بأنسداد الشريان الذى وظيفته ان ينقـل

المواد الضرورية لدكان النعال • ويستحيل على الموظف الحكومي وعلى الشخص من خارج مصلحة التعامل ان يفكر في توفير كل ما يحتاجه المجتمع ويكون الموظف في دول الثورات والايديولوجيات اقل الناس صلاحا لكفالة حاجات الناس فهو اولا يخاف على روحه من خطأ يرتكبه البشر في العادة ويتوجس من اتهامه بالتحيز ويفتقد الحماس بعد ذلك من خدمة اجتماعية يمكن ان تخلق له مشكلة ولا تعود عليه بأية منفعة • والواقع ان المنشغلين بحاجات الناس ومصالحهم يتفانون من حيث الكفاءة والحرص ، بشكل عام ، الى المراتب التالية (مع ملاحظة تفاوت آخر مبني على درجة التحضر) :

اول مراتب الحرص والدقة والكفاءة واشدها أثرا تبدأ بالفرد الذي لا شريك له فمهنته التي يعيش منها جزء من حياته • لقد رأيت الفلاحين يعزون دوابهم ومواشيهم كمعزة الأولاد ورأيتهم يبكون ويلطمون لموت بغل يحرث أرضهم • ويتناقص حرص الفرد بوجود شريك له في المصلحة • والملحوظ طبعا ان الفرد الواحد نادرا ما يستطيع اقامة مصالح ضخمة كمصنع للطيارات ، مثلا ، وهذا موضوع آخر نتجنب الخوض فيه •

ثاني المراتب تمثلها شركات غير حكومية ولا نسترسل في حيثياتها المتشعبة •

ثالث المراتب تمثلها الحكومات غير الايديولوجية التي لا قدسية في اعمالها •

رابع المراتب هي الحكومات الملتزمة بأيديولوجية اختارتها على صورة من الصور •

خامس المراتب هى الحكومات التي انبثقت من ثورة ايديولوجية لان وجودها كلها بما فيها من ظلم وخطأ وانحراف عبارة عن قدسية مطلقة في تفصيل مرونا ببعضه وعقوباتها نعوذ بالله منها .

انا اعلم ان البيريسترويكا والغلاسنوست احدثتا تغييرا كبيرا في درجة رعاية الفرد وانسانيته واعتقد أنها خففت كثيرا من غلواء الادانات ولكن يبقى ان موجهى الاقتصاد موظفون ليست لهم خبرة حية في حاجات الناس وكيفية اشباعها بتوفير ما يشبعها . ولا ندرى بعد ذلك كيف تتم معالجة حقيقة ضخمة في الاقتصاد لا يمكن اغفالها لحظة واحدة وهى ان الاقتصاد السليم يتطلب نظاما متكاملا في كل الاصعدة بالمجتمع الرسمى والاهلى يساعد على حرية الحركة وانتفاء الموانع والعوائق ويسهل فيه الحصول على المادة الضرورية دون تدخل شاغل المركز الكبير من وزير ومدير امن ورجل مخابرات ومسيطر حزبى وبقية المصائب المرعبة التى تحفل بها الدولة الثورية . ثم لا ندرى ايضا كيف يمكن خلق مناخ حر ومسئول في آن واحد من قبيل ما هو متوفر في بلدان (الطبقات) حيث الحرية مكفولة بالتمام والكمال ومسئولية المنتج نابعة من شعوره بالمصلحة الذاتية دون حاجة الى مرشد وفلسفة وأناشيد المارسيليز والاممية فكيف يتم خلق مناخ مماثل في واحدة من المصالح بلد ثورى مثل روسيا ؟ كيف يستطيع مدير المصنع استعمال حرية تقديره للكميات التى يحتاجها من المواد والخبراء والعمال والمكائن فاذا بارت تقديراته جاء الفشل كله واقعا على المجتمع لأن المدير غير مالك للمشروع وهو لهذا السبب غير حر نفسيا للاقدام على التوسع في الطلب ؟ قرأت في واحدة من أعداد أن مجموعة شركات غربية كبرى لها عقد مع

حكومة روسيا في زمان البيريسترويكا فاحتاجت الى (ختم) تصوغه لاستعماله فيما لا ادرى فقضت سنة كاملة حتى استطاعت تخطى العقبات التى تضعها البيروقراطية في وجه المصالح وقرأت أيضا كلاما لشخص امريكى يكاتب صحافتكم انه يتعامل منذ زمان مع الروس . . يقول انه دخل في حوار مع رئيس احدى الجمهوريات الصغيرة للقيام بعمل انتاجى تحتاجه الجمهورية وموادها متوفرة فكان التوافق في الرأى تاما ولكن الموافقة على العمل من اختصاص موسكو فاستمهله صديقه السوفيتي شهرا ليستكمل المراجعات ، ويقول قد مضى شهران حتى الآن بلا ادنى جواب .

على كل حال لا يمكن في تنشيط الاقتصاد ان يكون المجتمع ومرافقه جزرا منفصلة بعضها عن بعض فلا أمل في ازدهار جزيرة وبقية الجزر هامدة . ويتصل الاقتصاد باستقلال التشريع والمحاكم على اساس فصل السلطان كي لا يكون العبث باقدار الناس لعبة يمارسها الحزب أو الموظف في الاجهزة السرية فتلك علة تكفى بنفسها لذبح الاقتصاد . الحياة نهر يجرى ومياهه تتداخل باستمرار فيابخت مجتمع استطاع قادته ومرشدوه استشفاف عروقه المتشابكة ومصالحه المترابطة بشرايين واوردة تنقل الغذاء الى كل جزء في جسمه بطلاقة وسلاسة ناجية من تعاويذ الشعارات والتوقف بانتظار صدور الاذن بالتدفق . أعترف بأنى حائر أمام كيفية تبرير ذلك في مجتمعكم ومحاكم العدالة حتى هذه اللحظة تنتظر الأمر من جهات غير قضائية لاصدار قراراتها وذلك بحسب ما قرأت من كلام رئيس المحكمة العليا السوفيتية !

أطوى بقية الصفحة ٢٥ والصفحتين ٢٦ و ٢٧ من الكتاب رغم ان

لى عليها ملاحظات منشطة كثيرة ، لأقف قليلا عنـــد اول الصفحة ٢٨ اذ تنقلون من لينين هذه العبارة :

« ان الاشتراكية هى الابداع الحي للجماهير »

هـذه العبارة الجميلة مـــن العموميـات التى لا تستقر على معنى محدد وهى تختلط تمام الاختلاط مع عبـارة اخرى للرئيس غورباتشوف جـاءت بعـد ثلاثة سطور تالية اذ قـال : (ان الناس بـكل تنـوعهم الابداعى هم صناع التأريخ) واسـارع الى القول ابتداء ان صناع التأريخ هؤلاء ليسوا بالضرورة اصحاب التأريخ فقد مر بنا ان بناة الهرم من العمال المسخرين لم يـكونو أصحابها ، والذى يحوك حبـــل مشنقته او يحفر قبره بيديه امتثالا لظالم لعين ليس واحد منهما مالك وسيلة موتـــه . . وهـــكذا !

كلمـة (الابداع) في مقولة لينين جاءت مضافة الى الجماهير عفـويا بسبب اقتضاء معنى الأشتراكية لأفراد متعـددين يقومون بهـا والا فأن الابداع في كل عمـل ماهر رائع أشكل بالفرد فالفنون عامـة من موسيقى ورسم ونحت ، وكذلك الأدب في صياغتـه ولاسيما الشعر ، عمل أفراد . المضمون في العمـل الفني الجميل أو قطع الأدب الرائع قد يـكون موحى به مـن شخص ثان ولـكن جماليات صياغتها تعود الى ابداع الفـرد ، فاذا اشترك شخصان او ثلاثة في نحت تمثال واحـد فالراجح ان يـكون عملا فاشلا بسبب تبـاين الأمزجة واختلاف النفسيات وتميز (الصدور ـ الأبعاث) من هـذا الى ذاك . وقد يـكون العمل الفنى بالاساس متوزعـا على جماعـة من الأشخاص فيـكون الابداع في الأصل مـــن شخص واحد ولـكن تنفيذه يـكون قابلا للقسمة . فالصرح الشامخ الرائع هو

من تصميم معمارى معلوم ولكن اقامة حيطانه وطيقانه وقوابه يتولاها الأسطوات والعمال • وعندئذ أيضا يظهر أثر الأسطة المتفنن المتقن لعمله بقياسه الى اسطة آخر دونه في التفنن وهكذا ••

الواقع ان غالبية الاعمال التى تنجزها الجماهير بشكل جماعى امور متعبة في الحقل والمرعى والمعمل والمسلخ ••• الخ وتصبح روتينية آلية لا طعم فيها ولا روعة الا ما كان من شعور القائم بها أنه يؤدى واجبا وان Buisiness is Buisiness **وهو شعور** يتولد في بديات متقدمة من الحضارة التى تزرع في الفرد والجماعة الحرص على اداء الواجب قبل أن تشحذ فيهم التمسك بالحقوق ويكون هذا الشعور اقوى ما يكون حين يشعر العامل انه موفور الكرامة مكفول الرزق مضمون ضد الحوادث وان زيادة حرصه في الواجب تعود عليه باكثر من جملة استحسان وعبارة (شكرا !) • والملاحظ ان غالبية الأعمال في حياة الفرد المعتاد ذات حجم محدود يتناسب مع المجهود الفردى وهذه الحقيقة الملحوظة هى التى جعلت المدن في البلدان الآخذة بحرية الاقتصاد تصطف على طرفي شوارعها الوف الالوف من الدكاكين والمشاغل واماكن الراحة وما يحتاجه المواطن من مختلف المصالح والمرافق اليومية وكلها اعمال ترفض الاشتراكية بطبيعتها • في بعض المدن الكبيرة مثل لندن ونيويورك وتوكيو وباريس وغيرها ملايين السيارات الخصوصية والمأجورة وملايين الدراجات البخارية وغير البخارية كلها ذات طبيعة أحادية الادارة والتشغيل والاستثمار وتعمل في منتهى النجاح وضمن تعليمات المرور والاشارات الضوئية دونما حاجة مطلقا للمواعظ الفلسفية والشعارات الجماهيرية والتغنى ببركات روح الفداء والتضحية من أجل المجموع ذلك أن طبيعة

ترابط المصالح وتوقف سلامتها على سلامة تصرف كل واحد من المشاركين في مهرجان المعيشة تخلق في الكل شعورا مركزا بالواجب يعتاده ولا يخونه ، وليس من شك في ان قلب هذه المشاغل والمهن والأعمال من التملك الفردى الى ملكية الدولة في النظام الاشتراكى المفروض من أعلى سيؤدى بها الى الضمور والفوضى والتسيب • ان ورشة تصليح السيارات المملوكة للفرد واولاده التى توجد منها المئات في المدينة الواحدة وتتنافس سلميا بطبيعة المصلحة الذاتية لارضاء العميل ستنقلب الى فترينات كسل واستهانة و (تعال بعد اسبوع) حين تصبح ملكية عامة • حين اقارن واحدا من السينمائيين في المشروع الفردى أو شركة اهلية الى سينمائى موظف في ستوديوهات اشتراكية يظهر الفارق بينهما هائلا لا يقبل المقارنة فالسينمائى الاشتراكى (موظف) تابع لمديره على حين يصبح نجوم السينما الحرة أقوى شخصية ومقاما من اصحاب المقامات الرسمية الرفيعة حتى انى وجدت وزراء يتقربون من هؤلاء النجوم كى تظهر صورهم في المجلات متجاورة • منذ أكثر من ١٥ سنة رأيت ممثلة روسية في فيلم ضمن اسبوع الفيلم السوفيتى ببغداد ، في مستوى اشهر ممثلات العالم شكلا وأداء وفنا وحضورا ولكنها محاطة بأسوار عالية من عوامل كسف الشخصية في كل ما يحيطها من قصة واخراج وحرية تصرف فكأنها طائر جميل في قفص ضيق فلم استطع تحمل متابعة الفيلم •• خذوا اهل الصحافة واستحضروا صورة محمد حسنين هيكل في العالم العربى فقد أصبح أشهر من اغلب رؤساء الدول في العالم وتحسب كل الدول الكبيرة حسابا لمقالاته الاسبوعية وكتبه وتحركاته •• اذكر في سنوات ما قبل يوليو ١٩٥٢ المصرية ان عبود باشا الثرى والصناعى المصرى كفل حكومة مصر في بعض استقراضاتها

من البنوك .. رجـــال ونساء في الفن على نطاق العالم برزت شخصياتهم الحرة غير المنتمية للحكومات على حين يـكون المطرب الحـكومى فـي الدولة الاشتراكية احـد افراد الكورس في كثير من الحالات • صحيح ان الحكومات توفر الآلات والامكانات والاستديوهات ولـكن لحسابها الخاص يجعلها هى وجميـع الفنيين واجهـات أعلامية بأذابة شخصيـة الفنـان ليصبح قطعة في لعبة الشطرنج الاعلامى .. الخلاصة ان الدقـة في مظاهر المجتمع تكشف ان الحيـاة بالأصل مبنية على اساس (الفردية) ثم تأتى (الاجتماعية) لتكون في اوساط مراحل التطور خادمة لجهود الأفراد • ثم يحصل تقـدم باتجـاه ازدياد الروح الجماعية في ميادينهـا التي تحتاج الى التعاون والتساند مـع ازدياد الوجوه التى ينفرد فيها الفرد بنفسه أو يعتمـد فيها عمله على الابداع الفردى • فان غالبية سـكان كوكبنا تعتمـد في معاشها على الاعمـال والحرف المحصورة بالفـرد الواحد : دكاترة ، مهندسون ، خبراء ، فنانون ، رياضيون ، خـدم الخدمات في كل الأصعدة ، أصحاب الدكاكين والفنـادق ومعـارض الورد ، خياطون ، مكاريون ، سـواق السيارات ... الخ • كلهم معتمدون على المهـارة الشخصية والجهـد الذاتى • أنا لست ضـد التعـاون والمشاركة لـكن لا اتحمس لطمس البريق الفردى في سـبيل (جماعية) فاشلة • علمت من شيوعيين من اصدق اصـدقاء الاتحـاد السوفيتى قبـل أكثر من عشر سنين ان خمسة بالمئة من الارض السوفيتية يستثمرها الافراد فتعطى غلة تساوى خمسة وعشرين بالمئة مـن مجمـل الانتـاج الزراعى السوفيتى وهذا يعنى ان الخمسة والتسعين الباقية تعطى خمسة وسبعين بالمئة ، وبعملية تقسيم بسيطة : ٢٥/٥ ÷ ٧٥/٩٥ نجد ان الجهد الفردى ينتج ٦¼ ضعفا لما ينتجه الجهد الجماعي في المزارع

التعاونية • اعلم يقينا ان فشل الجماعى في حالة الزراعة السوفيتية لا يعود كله الى طبيعة العمل الجماعى فان جانبا ضخما جدا من ذلك الفشل يعود الى كراهة الناس للمزارع التعاونية على صورتها البغيضة التى فرضت بها ابتداء على الفلاح السوفيتى منذ أيام لم تكن مقومات العمل الجماعى الفلاحى قد برزت فيها للوجود أصلا الا في أدمغة القائمين بالثورة فما دامت ادمغة الثائرين قد آمنت بأن جماهير الشغيلة تريد الخلاص من الأستغلال فقد تكون آمنت آليا بأن الفلاح يكره التملك الفردى للارض الذى كان بالأصل هو السبب في شقائه ووجدوا أن ايسر صورة يمكن أن يطبق بها مبدأ كون الاشتراكية ابداعا جماهيريا هى صورة الانتاج الزراعي الذى لا يحتاج مديات متقدمة في التطور العلمى مما تحتاجه الصناعة •

يروى لنا زوار بلدان متقدمة ان صاحب الدار في مدينة من المدن يتفق مع احدى شركات البستنة القائمة على التملك الفردى لزرع حديقة في بيته أو لتبديلها بما هو أحسن ويختار النموذج الذى يعجبه ، فيروح الى عمله • وحين يرجع الى بيته بعد الدوام الرسمى يجد حديقته قائمة بكل تفاصيلها والمتسلقات تدلت منها اغصانها وازهارها وأثمارها وانتصبت الاشجار مخضرة مورقة فينانة • • والسبب في هذا الانجاز المحير هو شيئان اساسيان كلاهما لا يتوفر في الابداع الاشتراكى • الاول هو التقدم العلمي والتكنى الذى تحقق بفضل وجود الحافز الفردى وحرية التصرف • والثانى هو التنافس السلمى بين شركات كثيرة تعمل في هذا الميدان • وسمعت من اذاعة مسموعة على نطاق واسع كيفية حصول الفرد في الولايات المتحدة على سيارة بالشراء فهو يزور معرض احدى الشركات فيختار الموديل الذى

يناسبه مع الاضافات التى يريدها • وتكون الشركة مسئولة عن تصليح اى خلل يظهر في السيارة خلال ثلاث سنين لاحقة بلا مقابل بل انها تدفع لصاحب السيارة ١٥ دولارا يستأجر به التاكسى مقابل كل يوم يستغرقه التصليح • ويتم تقسيط ثمن السيارة حسب رغبة المشترى بتحمل شيء اضافي بسيط في الكلفة لقاء الاضافات وزيادة عدد الأقساط • اما كيف يدفع القسط الأول ؟ فها هنا العجب ! انه يدفع القسط الأول اذا كان يملك مقداره اما اذا كان مفلسا فأن الشركة نفسها تكفله في احد البنوك لتسليفه مبلغ القسط •• هذه التسهيلات كانت تنقلب الى (عملية امتصاص دم الشركة من قبل مشترى السيارة) لولا أن الشركة بكفاآتها العالية وضبط الأمور واختزال الجهد والمصرف وحرص كل موظف فيها على عمله ، فهى تفادى الخسارة وتحقق الربح • ان أية شركة مماثلة ستفلس في شهر واحد اذا مارست عملها في بلدان العالم الثالث بالشروط نفسها بسبب التخلف الحضارى وفقدان شعور المسئولية والاستهانة بحقوق الآخرين وبالتسيب واللامبالاة وحب المغالبة والتحدى على حساب مصلحة الشركة ! قرأت في كتاب Inside U.S.A. لمؤلفه (كنثر) (مات قهرا بسبب موت ابنه بالسرطان) ان تنافس شركات خطوط السكك الحديد آل الى ان تمتد بضعة خطوط عبر القارة في اواسط القرن الماضى وان المسافر كان ينتقل من سانت لويس الى سان فرنسيسكو بدولار واحد ، والمسافة بينهما تعادل اكثر من ثلاثين درجة من خطوط العرض اى حوالى اربعة اضعاف طول العراق من جنوبه الى شماله • هذا هو (مص الدم) الذى تحاول نظريات الاشتراكية أن تمنعه •

اننا نعلم خطورة الألعاب الرياضية في حياة الشعوب لهذا

العصر وكم من المسابقات الكبيرة ذات المكافآت الجزلة تجرى يوميا في أكناف العالم وفيما عدا رياضات محدودة العدد فالفائز الاول والمتفوق الأول والمتميز الاول وصاحب المكانأة الأولى والشهرة الأولى هو فرد واحد ، فها هنا في الرياضات ينشغل أكثرية سكان الدنيا بحكوماتها وشعوبها لتحضير احوال وساحات وأماكن ومدن تجرى فيها الالعاب يفوز فيها أخيرا فرد واحد يحتل في القلوب والعيون ووسائل الاعلام مكانة محفوفة بالمال السخى وهالة التقديس مع ان الرياضة لا تخلق لقمة خبز واحدة ومنها ما لا توفر حتى متعة المشاهدة (كالشطرنج) فما الذى يجعل افكارنا يصيبها الدوار حين يكون الابداع في عمل مبدع لا شهرة فيه ولا يكلف الدنيا فلسا واحدا من نصيب الفرد يعيش منه ويعتاش بثمرته الآخرون ؟ لماذا نقتل ابداع البقال والنجار والحلاق وآلاف آخرين يخدمون البشر ؟ ان الرياضى من دون ان يكون معتديا يستغل جهد الحكومات والجمعيات والشعوب ويستنزف جانبا غير قليل من دخولهم واوقاتهم وتعبهم ولا يقدم لهم زر قميص واحد فلا يعترض الاشتراكى والشيوعى وغير الشيوعى ولا يفكر احدهم في (الاستغلال) الكامن والظاهر في الجمناستيك والركض والسباحة والمصارعة ولكن السادة اصحاب النظريات المكافحة للاستغلال تضيق الدنيا بوجوههم ويفقدون لذة النوم اذا تركوا واحدا من المجتهدين يبنى معملا للعطور يديره هو واولاده او معاونوه او يفتح دكانا لبيع الصمون أو فرنا لانتاجه مع العلم بان الشعوب كافة تمثل في ميدان الرياضة دور البقرة الحلوب التى لا حظ لها من الشهرة ولا نصيب لها من الحليب الذى يستحلبونه وانها ـ الشعوب ـ كم مهمل الا من ناحية أنها مكلفة بدفع الكلفة في اقامة المدن والسوح والملاعب و .. و .. ولا نصيب الا المتعة التى ليست من مقومات الحياة . ولنذكر

ان الرياضات الجماعية أيضا مثل كرة السلة وكرة القدم تنحصر فوائدها المالية والاعتبارية بأشخاص الفريق الذى يمارسها فهم أقل عددا بمراحل من اعضاء الشركاء في شركة مساهمة ويساوون الفرد الواحد الرياضى من حيث تكليفهم الجماهير ثقل المال والتعب ومن حيث الشهرة والربح ، والجماهير هى هى من حيث ضمور الأسم وفقدان الخطورة • الفارق الوحيد الذى يميز الالعاب الرياضية من معمل للالبان هو ان الرياضة ليس فيها تملك وان كان فيها استغلال فظيع على حين تكون الالبان مبنية على التملك ولكن لا استغلال فيها أبدا بل فيها خدمة ممتازة للناس لا يمكن تقديمها قطعا عن طريق مؤسسة اشتراكية وفيها رخص لا يتوفر الا من الحرص والابداع الفرديين • الواقع ان وقوع الاذهان في اسار النظريات والافتراضات يقربها من حالات الدروشة والذهول عن الذات •• ان رأيى أنه حيثما كان في الأمكان اقامة المرافق على اساس جماعى وبنجاح وتفوق كان فيها ثلاث نتائج باهرة : اولها شيوع روح التعاون • ثانيها اختفاء التميز الآنى من التملك الذى لا موجب له ولا فائدة منه • ثالثها نجاة الافراد من احتمالات الخسارة الفادحة • ولكن كارثة الكوارث ان ينقلب هذا الجمال النظرى في تثمين العمل الجماعى الى فرضه بالقوة وحرمان الفرد أو الجماعة الشركاء من الابداع المصحوب بالتملك أو الحافز الفردى •

اتجاوز التعليق على رؤوس أقلام من كلمات الرئيس غورباتشوف في الصفحة ٢٨ و ٢٩ من مثل :

دفع الفرد الى المشاركة في كافة العمليات يعتبر الجانب الأهم فيما نقوم به •

لكى تصنع شيئا بشكل أفضل سيكون عليك أن تعمل بجد أكبر .

الشخص ذو المعنويات الضعيفة لن يعمل بجد أكبر ... الخ .

اتجاوز الدخول في بيان الشروط اللازمة لفاعلية هذه الآراء واقف عند العبارة الآتية :

(ومهمتنا الرئيسية اليوم ان نرفع من روح الفرد ونحترم عالمه الداخلى ونعطيه قوة معنوية) الخوض في هذا العباب حتى نقطعه الى البر الذى وراءه يغرق سفنا كثيرة ويعيى بجلد المثابر وأناة المصابر وهو في سعة القول المأثور منذ الاف السنين : (اعمل خيرا ولا تعمل شرا) وعلى قدره من غموض الطلب : ما هو الخير وما هو الشر فهما يختلفان بحسب اختلاف موازين الناس ومعاييرهم فالشخصان المتجاوران من دينين مختلفين يعملان اشياء شبه متناقضة بنية صافية في أن يكونا صالحين وكذلك المختلفون في الآيديولوجيا السياسية يتفاوتون الى حد الدخول في المشاجرة من اجل ما يعتقدون أنه مصلحة البشر . ولكنى لا اشك لحظة في أنه بالرغم من اختلاف المعايير في تقدير الحسن والسيء فأن كل طريقة من طرق الحياة مهما تباعدت لها من وضوح الرؤية أو فيها من فسح الخيار وما يتميز به الصالح من الطالح ضمن الهيكل الأخلاقى او الاجتماعى لكل طريقة . فبافتراض ان احدى الطرائق تميل بالأصل الى التشدد والمضايقة وفطم النفس عن المغريات فسيبقى مجال للاختيار بين المغالاة والتساهل في تطبيق المبدأ ، شأنه في ذلك شأن الأخذ بالحد الأقصى او الأدنى من العقوبة المفروضة على عمل معين في مواد قانون الجزاء . ان هذه حقيقة واضحة تسوغ لى القول بثقة تامة ان البيريسترويكا تتصف بعاملين مؤكدين من عوامل الصلاح : أولهما أنها خير بمراحل من الاساليب

التى طبقت قبلها في تعامل الدولة مع الشعب السوفيتى وكان تعاملا مبنيا على تجاهل رأى الناس . والعامل الثانى ان البيريسترويكا نفسها تحتمل الزيادة والسعة في رجوع السلطة الى معرفة رغبات الناس وبذلك تكون امكاناتها في رفع روح الفرد واحترام عالمه الداخلى أوفر وأفعل من جميع المراحل التى سبقتها واظنها حققت شيئا بهذا الاتجاه تمثل في حرية الانتخاب وتوفر الحرية في التعبير عن الذات ونقد الامور وكشف سيآت الماضى وفتح النوافذ على العالم الخارجي وان يكن ذلك قد صاحبه بعض الاحباط على ساحة المعيشة وفي نشوب الخلافات العرقية العنيفة وحصول الردة من أطر معينة هنا وهناك . الا أن هذه الاشياء السلبية الصغيرة ليست ذات أثر خطير على مصير البيريسترويكا ويمكن التغلب عليها دون صعوبات كبيرة اذا تمت في عملية البناء الجديدة خطى حاسمة واساسية من شأنها ١ ـ رفع روح الفرد رفعا حقيقيا لا يمكن الغاؤه ٢ ـ احترام العالم الداخلى للفرد باطلاق المجال أمامه كى يتدفق بلا عائق أو سدود او حدود ٣ ـ اعطاء الفرد قوة معنوية تنبعث من الثقة المطلقة بان السلطة لا تستطيع (وليس لا تريد) نزعها منه . وهذه هى النقاط الثلاث التى تضمنتها الفقرة المثبتة اعلاه وسيتم الكلام فيها تاليا حين نصل الى اقوال معينة من مثل (مزيد من الديمقراطية لاجل مزيد من الاشتراكية) حتى لا نطرق الشيء الواحد مرتين .

بعد هذا الكلام ، في بقية الصفحة ٢٩ ذكر لبعض منجزات الاشتراكية يمكن تلخيصها في بندين : ١ ـ العيش مكفول للجميع حتى از ذلك جعل بعض الناس عالة على غيرهم ٢ ـ البطالة غير موجودة في الاتحاد السوفيتى . ولكى يأخذ هذا الكلام حجمه الطبيعي

يجب بيان ملاحظتين : احداهما ان كفالة العيش في البلدان المتقدمة اصبحت امرا مفروغا منه حتى اذا كان من غير الممكن في بلدان حرية الاقتصاد حصر جميع حالات العيش المكفول فان في وجود فارق هائل بين مستوى الدخل في الاتحاد السوفيتي ومستواه في الدول البرجوازية المتقدمة احتمالات كثيرة ليجد العاطل السويسري ، مثلا ، رزقا بمستوى رزق العامل المكفول في بلغاريا • ومن ناحية العطالة فانه من الممكن ان يكون صادقا من يقول ان في بلدان الاشتراكية عطالة مبطنة عن طريق توظيف اكثر من شخص واحد في عمل يقوم به واحد فقط في العادة • وفي البلدان المرفهة يمكن ان يكون الشخص العاطل قد ترك العمل برغبته كي يعيش على هواه بعض الوقت بما وفره في ايام العمل • ثم اني قرأت لسيدة سوفيتية نشر كلامها في واحد من اعداد مجلة New Times ـ كما أتذكر ـ أنها لما اعتبرت مساوية للرجل فقد اعطوها عملا ذهب بانوثتها واستنفد طاقتها أحيلت على التقاعد براتب أقل وهي تعالج نفسها من أثر عملها المرهق وتستغيث أن يعيدوها الى انوثتها وامومتها •• وهكذا قد تكون الظواهر خداعة هنا وهناك • وفي كل الأحوال لا يجوز نسيان الامكانات المتوفرة لمعالجة النواقص ما دامت الثروة والتكنيك والصناعة موجودة • ثم ان الدنيا في هذا الجانب أو ذاك الجانب ليست قطعا من جنة الخلد فالمهم ان تكون قواعد العمل واسس الاجتماع سليمة قوية • فاذا كان نظام المرور ، مثلا ، في بلد ما صالحا لا يكون لمخالفات بعض الافراد واهمال بعض المرورين أثر خطير ، أما أن يجامل القانون رجل مرور اعوج او يشجع الناس على المخالفة فذلك تالة الأتافي كما يقول المثل • ثم ان مجرد كفالة المعيشة لا يكفي لبناء شخصية المكفول كما ان مجرد ارضاع الولد لا يغنيه عما في قواميس

التربية من اسباب النمو الصحى فليس غريبا ان يتوق العامل الروسى الى التمتع بالحصانة التى يتمتع بها العامل الفنلندى او السكوتلندى ضد الطبيعة الأستعلائية التى يتصف بها منفذ القانون او النظام او اللوائح بوصفه منفذ ارادة الجماهير وممثل الثورة البروليتارية في تعامله مع العامل فهو متقدس بالقانون في استعلائه والعامل منخفض بالقانون نفسه فقد كفاه ان يكون (أثمن رأسمال) لينزل الى مستوى الآلات وبقية مملوكات الدولة من رأسمال نقدى او متمثل في المواد الخام وحيطان المعامل وطرق المواصلات وأعمدة الكهرباء .. اننا لم نسمع في السبعين سنة الماضية من عمر الدولة السوفيتية ان يكون العامل السوفيتى قد استطاع ان يعبر عن ذاته بأبداء شيء من عدم الرضا او الاستنكار او طلب التغيير أو رفض الواقع بل لم نسمع خلال ذلك وقبل عهد البيريسترويكا بأى تململ سافر من اديب او فنان او فيلسوف ، وقصارى تقدمهم في حق المعارضة خلال المدة المذكورة كلها أر عقوبة الموت التى كانت تتهددهم في عهد ستالين تبدلت بعقوبة المنشقين في عهد ما بعد ستالين حتى زمان غورباتشوف وشعاره الجديد (البيريسترويكا) واستعادة المنشقين لحقوقهم المسلوبة .. لقد بلع ذلك التنكير لحقوق الفرد في التصريح بشيء من النقد للسلطة السوفيتية ان الاذعان لحكمه سرى من داخل الاتحاد السوفيتى الى خارجه حتى صار اديبه يخشى الاشارة الى شيء من ذلك خوفا من تأليب عامة اليسار ضد نفسه . فقد قرأت كلاما لاديب ومفكر لبنانى كبير وشهير عقب زيارته لروسيا في السبعينات ـ كما اتذكر ـ جوابا على سؤال حول كيفية تأقلم الاديب السوفيتى مع حظر التعبير عن نفسه بعدم الرضا وبالنقد اذ قال : ما ذنب الاديب السوفيتى في عدم النقد اذا كان لا يجد في وطنه شيئا يستوجب النقد ؟ قلت يومها مع نفسى : يالكارثة ! ألم

يكن طغيان عبادة ستالين لأكثر من ربع قرن بكل ما اقترفه من فظائع سببا كافيا لتحريك لسان اديب سوفيتي واحد بشيء من الاعتراض ؟ على حين لم يكن الاديب اللبناني المذكور نفسه يسكت عن نقد اى عمل في وطنه اذا وجد فيه شيئا مستوجبا للنقد . والواقع ان الادباء خارج الاتحاد السوفيتي ، لاسيما في بلدان العالم الثالث ، وجدوا من ادلة التمام والكمال لحقوق المواطن السوفيتي هذا السكوت المطلق من ادباء روسيا ومفكريها عن نقد شيء في بلدهم فاتخذوا ذلك بحد ذاته سببا مبررا لنقد كل شيء في بلدانهم حتى ان السياسي والمفكر والأديب العراقي المعارض لحكومة ما قبل ثورة ١٩٥٨ كان يشدد النكير على بناء مدارس جديدة بقاعات وغرف كبيرة على أنها ثكنات للجيش الأنجليزي والأمريكي يوم يعلنون الحرب على روسيا ... فيالخيبة الخيبات في عبث الضلال بالعقول ! واعتبر عامة المثقفين ربط سكك حديد الجنوب بسكك حديد الشمال عبر جسر جديد في مدينة بغداد تمهيدا لتسهيل حركات جيوش الأستعمار فيا لروعة الثقافة الفالقة للذرة !! بناء السدود على الأنهار لخزن مياهها ومنع فيضانها كان في نظر غالبية مثقفي اليسار يهدف الى انشاء مطارات مائية تحط فيها طيارات الأستعمار .. وهكذا لم يخل اى شيء نافع أو ضار تفعله حكومات ما قبل تموز من تفسير سوء نتزعه من فكرة الطبقية ودساتير فائض القيمة والتناقض وانقسام الدنيا الى معسكرين ونشطا في حركة السلم التي لم تكن بشكلها الذي مورست عليه الا أشوه أشكال الدعوة للسلم فقد كفاها أنها باركت هجوم كوريا الشمالية على كوريا الجنوبية وكادت ان تؤدي الى حرب ثالثة . وكان الاصرار قائما في جميع اليسار على ان كوريا الجنوبية هي التي هاجمت أو كانت على وشك الهجوم على حسب ما تذيعه

وتتشزه مصادر ستالين • ومن طريف ما حدث في ذلك هو انني انتقدت كوريا الشمالية في هجومها الخالي من اى مبرر فعارضني صديق متشدد في اتجاهه الستاليني مؤكدا ان الجنوبية كانت تهاجم • فقلت اى هجوم هذا وقد أخذت الجنوب على غرة حتى أن الجيوش الشمالية مضت دون عائق فكادت تصل نهاية كعب الجزمة في خارطة كوريا (كوريا تشبه أيطاليا في شكلها) فانتفضت عروق الصديق واحتج على تصديقي لكلام العدو وتكذيبي لكلام الصديق ومثل على ذلك بحكاية مشهورة تقول ان شخصا ذهب الى (جحا ـ خوجه نصر الدين) يستعير حماره في بعض حوائجه فقال له ان الحمار غير موجود في البيت فارتفع نهيق الحمار في كشف صارخ عن نفسه فقال :ـ يا خوجه نصر الدين أليس هذا حمارك ينهق ؟ فقال جحا : يا هذا أمرك عجيب أتصدق الحمار وتكذبني ؟ وأضاف صديقي الغاضب وانت تصدق عدوي وتكذب أخي ، فقلت ، ما ذنبي ياهذا اذا كان الخوجه نصرالدين كاذبا والحمار صادقا ...؟

ميل اليسار الى تنزيه نفسه باق على شيء غير قليل من القوة ويشكل عائقا أو مانعا دون وضوح الرؤية في تقويم الأشياء سواء منها ما كان أحداثا أم انجازات أم مواقف • وبقدر تعلق الأمر بدخائل الاشياء في الاتحاد السوفيتي فان عامة الأعلام الرسمي السوفيتي ماضية في هذا الطريق وأجد له أثرا جاسما في أغلب ما أقرأ من مقالات مجلة ـ International Affairs في اعدادها المتوفرة عندى حتى ان كتابها الروس يلزمون جانب سياسات ستالين دون ان يذكروا أسمه ، في كل أمر صار موضع خلاف بين الروس وبين الغرب • ان مسحة قوية واضحة من روح ما قبل البيريسترويكا بادية في تناول كتابكم

وسياسيكم ومفكريكم للشئون الدولية والسياسية الخارجية فهم في كل ما قرأت منحازون الى ما فعلته روسيا في كل عهودها .. بالمناسبة أقول انني قرأت للسير أنتوني أيدن منذ زمان بعيد كلاما في السياسة الدولية يبرر فيه مواقف السوفيت بالضرورات التي أحاطتهم ووجدت تلك بالذات كلاما في البيريسترويكا عن الامريكان يشبه كلام ايدن فيكم ولكني اقرأ لعامة الناس من خارج السلطة في بلدكم كلاما تنشره صحف روسيا اليوم (في اعدادها القليلة التى اطلعت عليها) يقولون فيه ما لا ينسجم قطعا مع كلام الرسميين عن السياسة الخارجية السوفيتية في أيامها القديمة . والذي أراه في مجمل موضوع تقوية الروح المعنوية والثقة بالذات أن أصدق معيار يمتحن فيه معنويات الشعوب والأفراد مقدار الصراحة المستعملة في نقد الذات والأعتراف بالنقص أما أن يستطيع الأنسان نقد غيره ومدح ذاته فذاك ما لا يحتاج فيه الأنسان الى من يشجعه . وتقول الفكاهة أن أمريكيا قال في ميدان مفاخرته لشخص روسي أنه يستطيع ان ينال من شخص رئيس الجمهورية الامريكية بكل حرية فقال الروسي : وماذا في ذلك فأنا أيضا أستطيع ان أقول فيه ما أشاء . والفكاهة ملفقة بلا شك ولكنها تحمل بذور الصدق لأن شيوع تعدد الأفكار والصحف وسبل التعبير وحرية الفرد والجماعة في اخراج ما بضميره وضميرها وتيسر وسائل الاعلام للكل في عامة الدول الآخذة بتعدد الأحزاب والآراء والمناهج يسر للناس قول ما يريدون بلا خوف من اية جهة كانت بل انه لما كان جوهر الديمقراطية الحقيقية القدرة على نقد السلطة ، والنقد في اقوى صوره يكون تعداد وجوه النقص والخلل في الحياة على مختلف أصعدتها فالمشهود في حال الدول الدمقراطية أن صحافتها ووسائل أعلامها تبرز السلبيات وأشكال

القبح والفظاعة حتى ليتوهم قارئها ان هـذا المجتمع على وشك الانهيار في حين يكون انحصار وسائل الأعلام في الدول المحكومة بالحزب الواحد والأيديولوجيا الواحدة مستدعيا لشيوع النفاق بكيل المديح للمرافق الفاشلة ووصف القبح بأنه ملاك وتسمية الجوع بالتخمة وهكذا الى نهاية قائمة التلفيقات والتشويهات . والعلة في ذلك ليست فقط هي رغبة المسيطر في مدح الذات ، وان تكن هذه الرغبة من الأسباب القوية ، بل العلة الأقوى هي انه ما دام النظام قائما على عمود واحد فأنه مما يهدد بقاءه واقفا ان تذكر عيوبه ونقائصه أو أن يمدح شيء لا يجري في السياق العام لأسباب دوامه وهي عملية طويلة متعبة تكلف خزينة الدولة ما لا يمكن الأحاطة به . أن الغنى لا يجد داعيا للفخر بغناه ولا يجد المتعة في ذكر أطايب الطعام في وجباته ، ويقرفه ويبث فيه السأم أن يدوم على مدى العمر في ذكر مفاخره وصنوف النعمة التي هو سابح فيها ولكن الجيل السابق علينا كان يذكر أن الفقير أذا أكل في يوم ما وجبة دسمة بلحم وشحم فأنه كان يبقي على شفتيه أثرا من بريق الدهن ويضع بقية العظام في نظام الى جوار باب بيته . وكان يحدث أن يسرق فقير مثله هذه العظام ليضعها على باب بيته تماما كما تفعل وسائل اعلام الدول الفقيرة في تلفيق المفاخر . ان البيريسترويكا خطت في نقد النواقص وبيان العيوب مسافة واسعة اذا قيست الى جميع الزمان الذى سبقها من وجود الدولة السوفيتية . وأجد رغبة حارقة عند جميع من قرأت لهم من الناس العاديين الذين كتبوا في مجلاتكم الراهنة بالثأر من سنوات خنق الصوت وكتم النفس وتلفيق الواقع فيطلبون الكشف عن كل الحقائق التي حجبت عنهم اكثر من ستين سنة ويتطوعون بذكر الذى هم مطلعون عليه من عيوب ونقائص وما يعتمل في النفوس من الميل

الشديد الى اللحاق بالأمم المتحضرة حولهم من الحريات التى ما وجدوا لها ظلا في بلادهم • وحتى الآن ذكرت أشياء كثيرة وكشفت مغيبات هائلة في طوايا الخمس والستين سنة السابقة على البيريسترويكا مع انى لم أقرأ الا اعدادا قليلة من بعض مجلاتكم لا يتجاوز بضع عشرة نسخة من جريدة ومجلة : ان كشف الحساب عملية صحيحة الى أقصى درجات الصحة وهو بمثابة رفع الغطاء عن مرجل ارتفع ضغط البخار بداخله مع فارق خطير وهو أن المرجل لا يحس وغايته ان ينفجر الى مزق ، أما البشر فأنه بالكتم والحصر والخنق المستمر يعود الى مسخ بشري حتى يموت او ينفجر • • ولا امكان لتجنب بعض آثار سلبية من رفع الغطاء (الاجتماعي) كأن يحدث ما قد حدث في بعض بلدانكم من فتح دفتر الثارات القديمة بين الناس والمسئول الأول في ذلك هو صاحب المنهج الذى تسبب في تراكم الغيظ في دخائل النفوس على مدى عشرات السنين في مضغ القهر وتحمل الحيف بالاكراه الجبرى • في هذه الأحوال يقال ان تلك النتائج من طبائع الاشياء ولكنها في الحقيقة من طبائع النفوس فالأشياء كالكمبيوتر والمحرار والسيسموغراف لا تعرف الغيظ والثأر فلو كان الناس في قرة باغ وسومغايت في (عقلانية) الآلات والقوى الطبيعية لاستقبلوا نعمة الحرية وهى غاية الحالة الصحية في المجتمع البشرى بما تقتضيه من الحرص على سلامتها وضمان دوامها فعالجوا مشاكلهم بطريقة تحقق المصلحة وتخرس السنة الكارهين للانفتاح لعلهم ينفلقون ! لقد كتبت في مواضع من كتبى ومقالاتى وآخرها كتاب (من هموم الحياة) الصادر سنة ١٩٨٨ ان الديمقراطية لسان الحضارة الذى تعبر به عن نفسها ، وجاء في آخر الصفحة ١٥٦ منه : (الديمقراطية نبات غريب عن تراب العالم الثالث لم يرسخ له جذر الا كما يرسخ للأشنات جذر على بعض السطوح

هنا وهنا لا يورق ولا يثمر ذلك ان التراب الذى ينمو فيه جذر الديمقراطية هو دخيلة النفوس ورؤية العقول وأنس الطباع وشبكة الاجتماعيات والخلفية الحضارية ، فالاوطان التى تفتقد هذه التقاوى لن تؤوى الديمقراطية ولو على سبيل الاستضافة لبعض الوقت) • جاء هذا الكلام في سياق كلام عام اوسع منه حاولت فيه توضيح محنة الديمقراطية في عالمنا الثالث بتفسير بعدها التأريخي الذى هو انعدام الديمقراطية فيه منذ الأزل حتى ما قبل قرن وبعض القرن بعد الثورة الفرنسية وركزت على دور طلائع نضالاته بغيابها الكلى عن تفهم روح الديمقراطية وروح شعوبها وروح العصر في تفصيل موجود بالكتاب المذكور • ولما كان غياب الديمقراطية مقترنا بوجود سلطة كانت تستمرىء دوام الحال بما فيه من مزايا لها عبر العصور فالمسئولية الاولى تقع عليها في الأنتقال بنفسها وبشعوبها الى ساحة القرن العشرين وعليها أن تحتمل شذوذا وجنوحا يقع اثناء ممارسة الديمقراطية التى كانت مقبورة عبر العصور • فليس يصح التسليم للسلطة بطي صفحة الديمقراطية كلما انفتق رتق من نسيج بنيتها فأن ألف الف رتق ينفتق في هيكل النظام الدكتاتورى ولا يكلف الدكتاتور نفسه بتصليح حاله او بطي صفحة حكمه • والكلام هنا يتوجه بالضرورة الاولى الى البيريسترويكا في أن عليها ان تتمادى وتتمادى في مد الخيط لارادات الناس بلا تحجج عليها وعلى ممارستها في أنها غير ماهرة لأنها ستمهر حتما في مستقبل غير بعيد ، فاذا كان رفع روح الفرد واحترام عالمه الداخلى واعطاؤه قوة معنوية من المهمات الرئيسية للبيريسترويكا فكان من ضمن هذه المهمات ادامة عملية التمتين والتقوية والترسيخ لكيان الفرد والجماعة ضمن عملية البيريسترويكا بالتغلب على عوامل النقض والتوهين ومعالجة الانتكاسات التى قد تقع

وليس بالغاء الديمقراطية وسد ابواب الانفتاح ذلك ان هذا العمل له أصحابه التأريخيون وهم البيروقراطيون وأصحاب الادمغة المتحجرة والصدور الضيقة ولم تكن بالناس حاجة الى قادة للانفتاح تكون خاتمتهم تأكيد رأى المنغلقين بالعودة الى سد المنافذ وقطع الالسن وقهر الخيارات .

بعد تجاوز جملة تعقيبات على رؤوس أقلام في الصفحتين ٢٨ و ٢٩ أصل الى وسط الصفحة ٣٠ اذ جاء فيها :

من كل حسب قدرته ، ولكل حسب عمله

وهو من الشعارات الجميلة المشهية التى طبقت شهرتها الآفاق وأخذ على أنه بديهية لا تحتمل المناقشة وانه يؤجل بشارة (ولكل حسب حاجته) الى طور الشيوعية .

لست ادرى كيف رست الأمور في الدول الاشتراكية ، والاتحاد السوفيتى بوجه خاص ، بصدد تطبيق هذا المبدأ فهو في حقيقته لا يعدو كونه واجهة سياسية تستقطب رضا الناس عن النظام الذى عرضها فليس في الامكان معرفة مدى قدرة الشخص حتى تقدركم صرف منها وكم بخل بها . ولا ندرى ماذا نفعل بزيادة القدرة التى يملكها الشخص على العمل الموكول اليه . ولا ندرى الا في حالات نادرة ما هو مقدار العمل الذى أنجزه الشخص ولا ندرى كم هو ثمن هذا المقدار الذى أنجزه .

في البلدان التى لم تتكلف رفع مثل هذا الشعار لا يوجد اشكال كبير في هذه الاسئلة فأن مبدأ العرض والطلب يجيب على تساؤلات كثيرة فأن ملايين الافراد يقومون بأعمالهم لحسابهم الخاص ويعرضون نتائج عملهم في السوق ويتوقف تحديد ثمنها على احتمالات

ليس بينها حكم مقدس سابق من جهة واجبة الطاعة ..

حارس غابات وظيفتـه الجلوس في برج المراقبـة لترصد التجاوزات والحرائق يقضي اغلب وقته بلا عمل واضح وليس لعمله ناتج موزون او مزروع أو يمكن عرضه في السوق .. فكم هي قدرته وما مقدار عمله وما ثمن ذلك ؟ وكيف يمكن التمييز بين حارس نشيط وحارس خامل كلاهما متربع على كرسي المراقبة ومن يراقب عملهما ..؟ أسئلة كلها بلا أجوبة !

مدرس يدرس التلاميذ وعدد المدرسين في روسيا ، مثلا ، يزيد على كذا مليون بلاشك فمن اين نأتي بالكمبيوترات لتحديد الجهد الذي يبذله كل مدرس توصلا الى معرفة ما اذا كان جهده (حسب قدرته) ام دون قدرته ام فوق قدرته ؟ وما ثمن جميع قدرته لنخصم منها حصة الجزء الذي تكاسل فيه ؟ وما مقياس تثمين الجهود من مدرس تام القابلية ومدرس أقل منه ؟ اسئلة حقيقية في شيء افتراضي خيالي ليس أكثر من شعار جذاب !

مليون سائق تاكسي بعضهم كسلان وبعضهم نشيط وبعضهم حرامية وبعضهم أشراف ..! ماذا صرف كل منهم بحسب قدرته وماذا أنجز بحسب عمله ؟ لو وضع على كل سائق مراقب دائمي على مدار الاسبوع والشهر والسنة والعمر لما أمكن التوصل الى ظل من ظلال المبدأ المذكور فيما ينجزه الافندي والويل للمستطرق الذي يريد الوصول الى وجهته في موعده اعتمادا علا سلامة ذمة سواق ضاعت آدميتهم في الموازين النظرية !!

عامل فحم وعامل الماس وعامل ذهب .. صائغ بلاتين وصائغ

فضة وصائغ نحاس .. ناسج حرير وناسج خيش وناسج زولية .. صباغ احذية وصباغ أقمشة وصباغ بيوت !! كيف يمكن تطبيق المبدأ المذكور عليهم بلا تعنت ومن غير تثمين جزافي وافتراضات تخطىء وتصيب ما دام مبدأ العرض والطلب قد تم قتله بقتل حرية العمل وحرية البيع والشراء والتعامل ؟ وما أجر عامل حفر فوجد الماسا ، وأجر زميل له حفر فلم يجد شيئا ؟ وما أجر صاحب الألماس اذا صرف بقية يومه بالكسل ؟

رسام كاريكاتوري ورسام سوريالي وآخر تكعيبي ، عرفنا ساعات عملهم فكيف يتم تثمينها ؟ ولم نعرف ساعات كل واحد بدقة فكيف يتم تحديد الأجور ؟ ما ثمن الكاريكاتور والسوريالية والتكعيبية ؟ وما نسبة أجر الرسامين أولئك الى أجور الكناس بفرض أنهم صرفوا قدرتهم بلا قصور ؟

سائق طيارة ميج وطيارة مروحية وطيارة شحن ؟ في الحرب ؟ في السلم ؟ في الليل ؟ في الشتاء ؟ في التدريب ؟ في العمل ؟ ما انعكاس هذه الحالات في مرآة من كل حسب .. ولكل حسب ؟

عامل زراعي أنتج مئة كيلو خيار وعامل آخر انتج خمسين كيلو مشمش وسعره ثلاثة اضعاف سعر الخيار ! كيف يتم تحديد أجرهما ؟ على أساس سعر الأنتاج أم مقداره أم نوعيته أم ماذا ؟

الخلاصة ان تطبيق هذا المبدأ لا يتم الا على الورق وفي خيال المنظرين ويمكن تجاهله بل يجب تجاهله تماما والأكتفاء بوضع ضوابط عامة لتحديد الاجور في مختلف الاعمال بحسب :

١ ـ خطورته ٢ ـ صعوبته ٣ ـ فنيته ... وما شاكل ذلك وان كان

ذلك يخل بمبدأ مجاملة العامل غير الماهر • وعولج مشاكل تحديد الأجور في كثير من بلاد الدنيا بتحديد الأجر على الوظيفة ضمن حدود عليا ودنيا حسب الكفاءة وحسب قواعد للترفيع وشروط للمكافأة واستناد الى الشهادات او الخبرة العملية محفوفة بأنظمة جزاء متعارف عليها درء للاساءة والكسل ، وتبقى حقيقة خطيرة تحكم هذه الاعتبارات الضرورية للضبط والتنظيم وهى حقيقة ذات فرعين كبيرين : اولهما ، ان فاعلية اى نظام او تدبير في احكام الأمور من عمل وادارة وتوجيه متوقفة على درجة حضارة البشر الذين يطبقونه فلا يمكن تنصيب وعاظ على الناس ليتصرفوا في حدود العدالة والانصاف والمصلحة واحترام القوانين والواجبات والحقوق • وثانيهما ان الاتعاش بجمال الشعارات والتنظيمات والتقنينات لا يوفر ربع صمون ما لم يكن هناك ازدهار اقتصادى •

وقد يكون مما يساعد على زيادة تنوير لما يعنيه هذا الشعار في واقع الأمر هو أن الدين يلقى أكثر من واجب على المتدين وقد لا يكون واجب منه يوفر له خبزا او ملبسا او مسكنا فهو يصوم ويصلى ويحج بلا شعارات ولا تشجيع من أحد والسبب هو أنه يؤمن بهذه الاشياء باعتبارها أوامر من رب العالمين اما التعاليم الدنيوية فأن اكبر ضمان لحسن اتباعها هو كونها موضع اقتناع عند القائمين بها على أنها ذات فائدة لهم • فالقول بأن الأشتراكية ابداع جماهيرى وانها (من كل •• ولكل ••) فبفرض انها تعنى امورا قابلة للتحقيق ، فلن تفيد في شيء ما لم تؤد الى مصلحة ملموسة • اما ان الناس منقادون لها رغم كل شيء فذلك لأنهم لا يملكون خيارا غير الانقياد •

والواقع هو ان الشعارات الفارغة يمكن تعليقها على باب كل

مصنع ومسجد وسينما ووضعها فوق القمم وفي بطون الوديان دون ان يكون لها اى قيمة تطويرية ولكن يكون لها في الغالب تأثير تقهقرى لكونها لا تعنى اى شيء قابل للاستعمال باستثناء جواز استغلالها من قبل المنتفعين في الدوائر الحاكمة .

وهناك اعتبار آخر في غاية الخطورة لم ينتبه اليها هذا الشعار وهو أن التطور التكنيكى يوفر وسائل للانتاج والعمل تزيد من قابليات الانتاج عشرات المرات وهى تدخل الحياة المتحضرة حتى انها تحل محل اليد البشرية بل ان العمل في المعامل ذات الخطورة في الاشعاع الذرى يتولاه اليوم (روبوت) ، ولربما استطاع شخص ماهر في التكنيك أن يدير مفاتيح معمل برمته فيقوم بمفرده مقام مئات العمال غير الماهرين . ولا أستبعد ان يأتي يوم يتغير فيه المستوى العلمى الى حد يختفى فيه تماما هذا الشعار الخالى من المضمون أصلا . ولا أبالغ أيضا ان شعار المنجل والمطرقة نفسه له من الدلالة العاطفية في تمجيد العمل البدائى مقدار هو اضخم بكثير مما يستدعيه عنوان (دكتاتورية البروليتاريا) التى لم تكن قط صاحبة الكلمة في اى من بلاد الاشتراكيات . وهو يرتد على مفاهيم المستويات المتقدمة في البلدان التى تسنى لها التطور العلمى والتكنيكى حين يكافىء على العمل غير الماهر بأكثر مما يكافىء العمل المتخصص في فرع كالطب ، مثلا ، ويحجب بقسوة متناهية دور العلماء والمهندسين وذوى الخبرة والمهارة . ووجدناه في الثورة الثقافية بالصين يهزىء كل معنى فيه أى مقدار من التعقل والمنطق . ان المنجل والمطرقة شعار يليق بأى طور حضارى جاء بعد العصر الحجرى الى ما قبل الف سنة أو أكثر فهما بمستوى العضادة والسطح المائل في بدائيتهما وتفاهة شأنهما ، وغاية ما

يفعلانه بعد استخفافهما بالعلم والتكنيك والصناعة والحضارة وبالعامل الماهر نفسه ، انهما يمهدان لتحكم البيروقراطى الذى يستطيع من مستوى أميته ان يسيطر على مجتمع محكوم بمفاهيم المنجل والمطرقة ، وبضربة واحدة من هذا الشعار يقضى على كل وزن وخطورة ورأى للعامل الماهر والمهندس والرياضى في المصنع ويستقطب به ولاء جماهير العمال الأميين أمثاله • فما أشد قسوة المفارقة في الغاء شعار القلم والقرطاس والمركبة الفضائية ليرتفع مكانه شعار هو من ميزات عصور الأمية • ولا يتوهمن احد من عشاق الشعارات الجزافية ان كرامة الطبقة العاملة مرتبطة بهذا الشيء الخيالى المغرق في الرجعية فانه مهما يكن من مزايا للعمال وغير العمال في ظله فلا نسبة بين الذى يتمتع به عامل سويدى او دانماركى بغياب المطرقة والمنجل من شعاراته وبين حالة العامل البلغارى والرومانى من نواحى متع الحياة المادية واعتبارات الكرامة واحترام الرأى • ثم ان لا واقعية الشعارات الجزافية المقدسة ذات أثر خطير في تردى نوعية المصنوعات وقلة كميتها • ان قراءة عابرة لمقالة Simon Chilewich بعنوان Business and Perestroice منشورة في عدد يناير ١٩٨٩ لمجلة International Affairs الصادرة في موسكو تكشف مدى جمود هذه الشعارات في ظل البيروقراطية وانتفاء الشعور الشخصى بالخسارة • يقول في بعض ما يقول انه تم توصله الى اتفاقية مع وزير الصناعات الخفيفة الروسية حول تسهيلات مشروع لتصنيع الجلود وان سنة كاملة مضت ولم نشرع في اى خطوة والعلة ليست في قلة حماس الوزير ولكن للطبيعة السلحفائية في البيروقراطية وتعسر الوصول الى قرار جماعى •

ان التجربة المرة التى تمر بها الشعوب في تحمل المصاعب والتخلف لاكتشاف ما في الشعارات الجزافية من خداع نظر وعبثية تغنى العالم كله عن اعادة التجربة مرتين وعن تجربة مماثلة «محكومة بالرغبة الفوقية .. وانى لأتساءل ما اذا كان البيروقراطى يرضى ان يتلكأ مشروع خاص به كما تتلكأ المشاريع العامة بسبب تعنته هو وتمسكه بالشكليات والمواصفات التعجيزية وهل يرضى أن تضيع ثروته الموظفة في مشروع يظل يأكل جزء فجزء من تلك الثروة خلال المدة المنقضية على حصول الموافقات المطلوبة في تشغيله .

اذكر أن صديقا كان يستغل رأس ماله في التزام المشاريع الحكومية حاور بعض المسؤولين الحزبيين في بلدى منذ أكثر من عشر سنين فقال لهم في اخلاص أكيد وصدق كامل : لكم الكفاية يا سادة أن تنشغلوا بالمشاريع الكبيرة والمواد الباهظة فليكن لكم استيراد شيلمان الحديد ولكن دعوا لى أنا استيراد المسمار والكليبس والدبوس فان هذه الانواع الصغيرة من الحاجات لا تخطر على بالكم ويحتاجها الناس فى اعمالهم اليومية . وهو كلام يصدق في كل المجتمعات فالحكومات لا تستطيع الانسياب الى جداول القطن والاندساس في علب البسكويت والانسلاك في صنابير الماء ومئات مئات المصالح الدقيقة والخفية التى يحسها الفرد في تعامله اليومى مع الحياة . والحكومات اذ لا تستطيع ذلك لا يصح لها قطعا ان تدخل بين الناس وبين رغبتها المشروعة في أن تجد ملحا أبيض ومعجون طماطة أحمر وابرا بأحجام مختلفة وكفايتها من الحبر وأشرطة الحذاء و .. و .. في اى وقت تحتاجها ولا يفيدها الف عذر وحجة في اختفائها بذريعة منع الأستغلال وتعميم الأشتراكية . ويوم يتبلد احساس الناس حتى يستوى عندها توفر

الحوائج وانعدامها في السوق باجترار الأحباط على مدى الأيام لا تعود تهتم ما اذا كان حرمانها آتيا من عجز الحكومة واشتراكيتها الساذجة المسطحة ام من فعل الشيطان والأرواح الشريرة وتبقى الشعارات ، كل الشعارات ، خفاقة في الهواء تنعم بقسطها الذى لا تستحقه من التقديس والكلام يطول في هذا الباب فاغادره الى متابعة بعض ما ورد في وسط الصفحة ٣٢ اذ يقول :

ان الأشتراكية والديمقراطية لا تنفصلان وفقا لما يقول لينين .

الديمقراطية بمعناها الحقيقي شيء معلوم لا يحتمل التأويل وهى ، بعد وجود سند حضارى لها في واقع المجتمع أو ايمان مطلق بها في الأقل ، عبارة عن حكم ينبثق من تعددية المناهج ، أي الأحزاب وحظر تفرد أية جهة حزبية أو أيديولوجية بالحكم عن طريق قهر الآخرين . ومن خلال النظر الى الموضوع بهذا المفهوم يكون كلام لينين يقصر حق حرية الاختيار على أصحاب الأقتناع بالأشتراكية فقط وهو اى حق حرية الأختيار ، يضيق في التطبيق بحسب منطوق كلام لينين نفسه ليدور في اطار اشتراكية أقامها هو فلا تستطيع حتى الطبقة العاملة نفسها ان تخرج من هذا الأطار الذى رسمه حولها لينين وهو اطار دكتاتورية الطبقة العاملة . وواضح ان الدكتاتورية لا تمارس من قبل ملايين الناس ، ولا مئاتهم أيضا ، فالضرورة تقضي بايجاد صيغة تنقل حق ممارسة السلطة من الشغيلة الى الذين أنابوا أنفسهم عنها في ادارة المصالح ،وبهذا يتأكد الى الأبد في واقع الممارسة ما أكدته النظرية بالايديولوجيا من سقوط حق الشغيلة في أن تكون دكتاتورية .

هذه حقيقة ملموسة ومحسوسة ومشهودة ومحتمة الوجود ولها سوابق في التطبيق أبرزها ما هو حاصل في العقيدة الدينية في عدم وجود

خيار للمنتمي الى دين معين أن يخرج منه الى دين آخر أو الى غير دين مع ملاحظة ان الدين له في ذاته مبرر من حيث انه في نظر نفسه ارادة رب العالمين لا ارادة فرد واحد أو مجموعة أفراد .

ونحن نعلم الى ماذا آل هذا المبدأ على عهد ستالين وما بعده فقد عز في التأريخ أن يكون قد حدث (سقوط الحق) من اصحاب الحق كما سقط حق الأختيار من شغيلة الدولة السوفيتية حتى ان تمردات حدثت على سلطة الاكليريك من قبل اصحاب العقيدة الدينية هنا وهنا في الزمان والمكان ولم يحدث مثلها قطعا في زمان ستالين وما بعده لا من الشغيلة ولا من غيرها . واليوم تأتي البيريسترويكا بالبشارة من أعلى فانتعش بها الآمال وتنفست الناس الصعداء من خلال توفر الأمكان لتقول ما ملأ صدرها بالألم منذ عشرات السنين . ومن الواضح انه على قدر طول حرمان الناس من حرية الكلام ستطول فرحتهم بالكلام والقدرة على الثأر من ظلام الماضي بالهجوم عليه ولكن :

يملأني التوجس ، أنا الذى لا أملك في الأمر شيئا الا ادامة النظر في حيثياته القديمة والراهنة واحتمالات المستقبل المتولد منه ، يملأني التوجس من حتمية انقضاء (شهر العسل) وأوان الفرحة هذا بأنتهاء الناس من لذة التنفيس عن الذات وفراغ جعبة العتاب والنقد والتجريم وعندئذ سيفتحون العين على حقيقة لا تسر وهى ذات ثلاث اذرع تشد المجتمع في احكام : اولها استمرار دكتاتورية البروليتاريا وما تنطوى عليه من مآل واضح في رجوع السلطة الدكتاتورية الى طبقة حاكمة تدير بالضرورة وتوجه على سبيل الحتم امور الناس فلن يكون بالأمكان تمكين الشعب كله من ممارسة الحكم . ثانيهما ان الحزب المتفرد الذى لا منافس له سيقوم مستقبلا بالدور الكريه الذى قام به

في الماضي فما هو مجموعة ملائكة منزهة من الرغبة وحب الظهور واثبات الذات بكف الآخرين • ثالثهما ان الايديولوجية المتفردة التى تحظر كل الايديولوجيات الأخرى من أكثرها تضييقا الى اكثرها انفتاحا ستدور بالناس في حلقاتها المفرغة وبين شعاراتها التأريخية والمستجدة وتنتهي أخيرا الى مداواة الناس بالداء الذي تريد علاجه • والشعار المستجد الذى ورد ذكره لن يكون اكثر من ابتداع صيغة أو صيغ جديدة بمضمون قديم فالأشتراكية اللينينية الماركسية ذات معنى واضح لا خفاء فيه وجربت على مدى اكثر من خمس وستين سنة •• أنا لا املك الحق في الدعوة الى هجر عقائدكم ولكنى أملك الحق في بيان التداعيات البديهية التى تنبعث من بنيان مستند على عمود واحد فالقول بأن الأشتراكية والديمقراطية لا تنفصلان يعني بداهة ان الديمقراطية والديمقراطية تنفصلان الا اذا كان المقصود بالأشتراكية حلولا يطلبها التطور الديمقراطي المبني على تعدد المناهج وهذا ما لا تعنيه اللينينية الماركسية بحال من الأحوال •

ان نظاما مستندا الى دكتاتورية بروليتاريا ذات منهج اشتراكى محدد مفروغ منه بحزب واحد لن يطول به الوقت ليأتى ببريجنيف جديد يعلن انتهاء العمل بتأجير الأرض لمدد طويلة وانه آن الأوان لمنع وسائل الأعلام من نقد الاشياء ، الا اذا استمر التحايل على النصوص الخالدة والصيغ المحنطة بالالتفاف حولها أو افراغها من محتواها وحشوها مجددا بمضمون مغاير ويكون الشفيع في كل مرة التظاهر بأن لينين قصد هذا وان ماركس صرح بمثله وان لب الاشتراكية اقتضى ما حدث وهكذا ••• وهذا ما لا يفعله خليفة بريجنيف قطعا ••

ليس لاحد ان يمنع الشعب من ان يختار ما يوافق رأيه فله ان

بتمسك بدكتاتورية البروليتاريا أو بحكم الشخص الواحد أو حتى بالرجوع الى القرعة فيما يجب ان يتقرر ، فهو صاحب الحق فيما يملك، فأذا كبل نفسه بارادته وتنازل عن رأيه بارادته وأقام صنما يعبده بأرادته وهدم ضمانات كرامته بأرادته فله ما يريد مادام لا يعتدى على ارادة شعب آخر وليس لأحد بعد ذلك ان يتحسر ويعض البنان ويتكلف الاسى على تفريط الناس في حقوقهم بل ان خلاصهم من القيود التى فرضوها على أنفسهم يجب ان يترك الى الاجيال التى تأتى بعدهم . ولكن قبل أن يتطوع الشعب من ذات نفسه وبرضاه التام ان يقيم حوله ثلاثة اسوار سميكة من : ١ ـ دكتاتورية البروليتاريا ٢ـاشتراكية محددة الاوصاف لا يجوز تخطيها ٣ ـ حكم الحزب الواحد ، ليس من الانصاف التذرع بالتبريرات والتخريجات لفرضها عليه : ليس للوكيل ان يصادر حرية الأصيل في التصرف بما يملك الا اذا كان المالك قاصرا تدار أملاكه من قبل ولي أو وصي أو قيم . على ان الفرد القاصر سيبلغ الرشد في يوم من الأيام المحددة في القانون ولكن الشعب الذى يعتبر قاصرا سيظل قاصرا حتى يتنازل وكيله عن وكالته أو الوصى عن وصايته بعد عمر طويل وهذا من قبيل الأحلام اللذيذة ..

أنتقل الى العنوان التالى في صدر الصفحة ٣٧ :

مزيد من الاشتراكية ومزيد من الديمقراطية

رؤوس أقلام كثيرة تتبع هذا العنوان تطلب التعليق والمناقشة مثل:

١ ـ ترتبط البيريسترويكا ارتباطا وثيقا بالاشتراكية كنظام .

٢ ـ هل تعنى البيريسترويكا اننا نتخلى عن الاشتراكية .. البعض يراوده الأمل وآخرون يراودهم الشك .

٣ ـ هناك اناس في الغرب يلحون ان يقولوا لنا ان الاشتراكية في ازمة حادة .. وأن امامنا مخرجا واحدا هو ان تتبنى اساليب رأسمالية للادارة الاقتصادية وان تنجرف ناحيـة الرأسمالية .

٤ ـ يقولون لنا ان البيريسترويكا لن تؤدى الى نتيجة داخـل اطار نظامنا وعلينا ان نغير هذا النظام .. وأن ثورة ١٩١٧ كـانت خطأ عزل بلادنا ... الخ .

بعـد هـذه النماذج تتفضلون ياسيادة الرئيس غورباتشوف بتوضيح لا لبس فيـه هو أنـكم تقومون بكل الاصلاحات وفقا للخيار الاشتراكى وتبحثون داخـل الاشتراكية عن اجابات جميع الاسئلة .. وان الـذين يأملون أن تبتعد عن الطريق الاشتراكى سيصابون بخيبـة أمـل ... وان البيريسترويكا ترتكز على مبدأ مزيد من الاشتراكية ومزيد مـن الديمقراطية ...

مـا تتفضلون به من تفـاوت أو تنوع آراء الناس وتوقعاتهم حـول اعـادة البنـاء شيء مفهوم وواقـع ويمـكن ان نضيف الى مجموع تلك الآراء رأيا آخر صـادرا من اشـد الناس عـداوة للانفتاح واعادة البناء وهؤلاء الاخيرون يمثلون الطرفين الأقصيين من اليمين واليسار وبعبـارة أدق غلاة المتشددين في الاتحاد السوفيتى مـع غلاة اليساريين خـارج الاتحاد السوفيتى وغلاة اليمين في العالم الرأسمالى وهؤلاء تجمعهم البلوى في موقفهم من الانفتاح والدمقراطية . فالبيروقراطية الروسية تتهاوى اذا مضت حركة الانفتاح الى غايتها . واليسار المتطرف خارج روسيا مرتبط روحـا ووجـودا ومصيرا بالستالينية وأشـد أنواع الحـكم دكتاتورية وعنفا لأنهم لا يتنفسون هواء نقيـا كالاحياء التى لها رئة وانمـا هم يتنفسون بغلاصم .. امـا المغرقون في العـداء للاتحاد السوفيتى من عالم

الغرب فهم لا يتمنون شيئا كما يتمنون انبعاث ستالين جديد يسد باب القفص على الشعوب السوفياتية فذلك في نظرهم يؤدى الى نتيجتين تشتهيهما نفوسهم : اولاهما ان السوفيات سيظل في تأخره علما وتكنيكا وانتاجا في الزراعة والصناعة فيختفى بذلك خطر المنافسة الروسية للعالم الغربى في ميدان الأقتصاد • ثانيهما ان عودة الستالينية تتيح لهم الجهر بآرائهم في وجوب التصدى لروسيا بالسلاح النووى ومنع التكنولوجيا عنها ومحاربة كل شيء فيه ازدهارها وفي ذلك اتساع الفرص أمامهم لترويج افكارهم وفرض نزوعاتهم وحماية مصالحهم التى تتعرض للتهديد بانفتاح روسيا وزوال الموانع في التعايش السلمى الذى لا تعقيد فيه بين الشرق والغرب •

سيادة الرئيس غورباتشوف ! يبدو أن تأريخ سبعين سنة الا قليلا ، من الأجواء المشحونة بالشك والتوجس وتوقع الغدر بين الشرق والغرب زرع في اعماق النفوس بذورا للريبة وسوء الظن يصعب قلعها • ونظرة بسيطة الى حقائق الأحوال في المعسكرين تكشف حقيقة خطيرة لا يمكن اغفالها وهى أن ما يميز شك الشرق هو انه بعد انبعاثه يصبح شاملا للدولة السوفيتية ونظرها وتقديرها لأن الحكومة فيها تمثل نفسها وتمثل مجموع الشعب في وقت واحد فلا يوجد تعدد في الرأى حتى يكون هناك اتجاه رسمى متشكك واتجاه شعبى او اتجاه معارض أقل شكا او غير متشكك ، على حين لا يوجد في الغرب هذا الاتحاد والحلول بين الحكومات والشعوب ففيها ثلاثة مصادر للرأى السياسى في أقل تقدير وهى : الحكومة واحزاب المعارضة (بما لها جميعا من وسائل الاعلام) ثم جماهير الشعب التى لا تنخرط في الاحزاب • ولهذه الفئات الثلاث (حكومة ، معارضة ، شعب) وسائل متيسرة ومتعددة للتعبير عن الرأى

بلا تزييف ، ولا يمكن اعتبار مجموع الناس ، حكومة ومعارضة وشعبا طبقة سياسية واحدة بدعوى أنها جميعا تؤمن بالحوافز الفردية والتملك الفردى ولو جاز ذلك كان ادعى الى اعتبارها طبقة واحدة أنها جميعا تؤمن بالديمقراطية وحرية الرأى الى أقصى حد متصور ، ومن هذه الزاوية يمكن للشرق أن يزيد من توجسه من الغرب بسبب ايمان الغرب بالدمقراطية وليس بسبب ايمانه بالحافز الفردى لان الخطر الذى يتهدد الاشتراكية الماركسية هو حرية الرأى وليس الحوافز فانه يمكن حتى في الاشتراكية خلق حوافز ضمن حدودها بل خارج حدودها أيضا ، بالاضافة الى ان الاحزاب الشيوعية في الغرب لا تشكل جزء من سيمفونية (وحدة الحوافز) مع البرجوازية ولكنها أصبحت تشكل جزء من سيمفونية (وحدة الديمقراطية) مع مجموع جماهير الغرب .

ليس خافيا ان تشدد لينين في نظرته الى (الاستغلال) باعتباره شرا محضا يجب الخلاص منه ، قد غالى به لترصد مسايله ومتابعه في بنية المجتمع من قمة الرأسمال الضخم حتى أتفه اشكال استغلال فرد بجهد فرد آخر لقاء أجرة ، فالبرجوازية الصغيرة وكل الشرائح التى يقوم نشاطها على التأجير والاستجار وكل العقائد التى تقف في اشتراكيتها دون مرحلة دكتاتورية البروليتاريا مجرمة في كتابات لينين ، وفيما عدا الجماعة البلاشفة الذين تابعوه في ثورته الطبقية الخالصة ان جميع اجنحة ثورة ١٩١٧ التى ازاحت القيصرية وجاءت الى الحكم ، كلها خونة ومرتدون واعداء الطبقة العاملة . ونعلم ان كتابات لينين حظيت بمقام الكتب السماوية في نظر تلامذته ومن جاءوا بعده في الحكم حتى ان ستالين نفسه استغل آراء لينين الحدية في تصفية خصومه

وان يكن ذلك قد تم بنية شريرة وشيطنة نادرة وتحريف لمقاصد لينين • وأوضح رأيي فأقول انه بمثل ما يكون الايمان بوحدانية الله يطلب من الموحد تجريم التعددية كذلك يكون الايمان بالاقانيم التي تدعو الى حرية جميع الطبقات والى التملك واستئجار عمل الآخرين شيئا بغيضا ومحرما في عقيدة تدعو الى اختزال الطبقات عن طريق ازالة التملك وتحرم بيع العمل الى غير الدولة • ومن هنا يكون مجرد قيام المجتمعات الغربية على هذه المحرمات مبررا كافيا للاشتراكية الماركسية كي تدين وجودها بل انها لا تملك الا المضي في السعي لهدمها فاذا اضطرت الى قبول وجود تلك المجتمعات والتعايش معها فهو بسبب الاضطرار والعجز •

اما موقف البلدان البرجوازية فهو خليط من آراء مختلفة من بينها عقائد شيوعية نشطة كسبت مساحات فسيحة من خارطة المجتمع الغربي وفيه آراء اشتراكية قوية تقصر المسافة بينها وبين الماركسية ، بل اننا نجد لينين نفسه انساق مع رأيه في فاعلية البروليتاريا الغربية وقدرتها على احداث التغير ، ورغم أنها لم تستطع التغير المطلوب فقد قامت حسابات روسيا السوفيتية على ان اولئك اصدقاء للسوفيت • لذلك لا أملك الا أن أعتقد ان ارتياب السوفيت من العالم الخارجي مبني على اسس من صميم عقيدتهم السياسية والأيديولوجية • ورأينا في تجربتنا الشخصية من عنف تهجمات اليسار المتطرف في بلدنا على اجنحة الحركة الوطنية صورة مصغرة ومصدقة لعنفوان الثورة الطبقية ببلدكم ضد العقائد التي تخالفها • وتأكد هذا أكثر وأكثر بالتصفيات الداخلية التي نالت صفوف الرواد للحركة البلشفية في عصر ستالين وما بعده مع ما رافقها من تشديد القبضة على دول اوروبا الشرقية بلغ حد

الأحتلال العسكرى بكل قبحه وعاره حتى يوم برز فيه حملة شعار البيريسترويكا والغلاسنوست بنظرة جديدة لعلاقة الدولة السوفيتية بالاصدقاء والأجانب ومن هم وراء الخط الفاصل بين الصداقة والخصومة.

انى اعتقد ياسيادة الرئيس غورباتشوف ان غالبية الناس خارج بلدكم يحبون ويتمنون ويساعدون على قدر الطاقة سياسة البيريسترويكا وان غالب ما يقدمون من وجهات النظر التى تطلب تبديلا وجذرية في الادارة والاقتصادية والنظرة الى العلائق الاقتصادية في بلدكم فأنما يقدمونه من زاوية بيان الرأى الذى يعتقدون بصحته ومنهم من يطمع في مكسب شخصى له اذا وسعت روسيا من نطاق حرية الأفراد في الاتصال بالدنيا والدخول في معاملات تجارية مع الأفراد والشركات فالاتفاق مع اصحاب المصلحة الخاصة أسهل بكثير من الاتفاق مع الحكومات بصورة عامة ومع حكومة اشتراكية ماركسية بصورة خاصة . وأنا أجد رغبة حارة ومؤكدة عند سواد الناس في بلدكم من خلال ما أقرأ من آرائهم ونزوعاتهم ، اجد رغبتهم في التمتع بحريات المجتمعات الغربية وفي الاستفادة من المتاجرة معها واستعارة نماذجهم الناجحة في طرق الانتاج والتوزيع واستعمال التكنولوجيا ونبذ الطرق الأستعلائية في الادارة المطبقة عندكم والقضاء على الروتين المميت والبيروقراطية الخانقة .

يمكن أن اضع موضوع الأسلوب الأشتراكى في الأنتاج على جانب وأناقش فكرة (مزيد من الديمقراطية) في اقترانها (بمزيد من الاشتراكية) فالمزيد من الاشتراكية يعنى بالبداهة الرجوع عن الخطوات التى تمت في تعديل تطبيقاتكم القديمة من مثل تأجير الأرض لمدد طويلة والسماح للأفراد بممارسة اعمال خاصة ،على حين لا أمل في نجاح الأعمال الصغيرة والمهن المعتمدة على جهد الفرد الواحد ، الا اذا أبعدت

من نطاق الأشتراكية بشكل جذرى ونهائى لانها تنافى بطبيعتها مع تعدد الرأى والأرادة وبعضها لا ينتجها الا فرد واحد أو افراد اسرة واحدة فيكون اخضاعها للاشتراكية أقرب الى اعدامها فهل تستحق الايديولوجيات ان تموت المصالح بسببها ؟ وهل جاءت الآيديولوجيات الا لخدمة المصالح ؟ فاذا اخفقت في تحقيق المصلحة فهل هى من ضمن الهامات السماء لتخرج عن نطاق الربح والخسارة ؟

ترى ماذا يحدث لو تقرر عندكم اجراء استفتاء عام على رغبة الناس في تعيين صفة الأعمال التى تدخل في الاشتراكية والتى تدخل في الجهد الفردى ؟ ام ان الصيغ الاشتراكية في ميادين الاقتصاد والاجتماع والافكار والمعتقدات آيات من كتاب سماوى جديد ؟ هذا السؤال وغيره من الأسئلة ومن وجهات النظر اساسها الحرص على سلامة الحركة التصحيحية ورسوها على بر الأمان فأن ميل غالبية الناس في دنياكم ودنيا غيركم استعمال الخيار الشخصى في تعيين نمط المعيشة وامتلاك الاشياء والتصرف بها والطريقة التى تحقق بها ذاتها أظهر من الظاهر وأقرب الى بداهة الاشياء ولا أظن ان مقولة (مزيد من الديمقراطية) تعني الا تمكين الناس من رسم خارطة حياتها بارادتها لا بارادة الحزب أو الحكومة أو أية جهة تتحل صفة تمثيل ارادة الناس • اما ربط الديمقراطية بالاشتراكية عن سبيل الرجوع الى ثورة حدثت من سبعين سنة على اعتبار أنها صاحبة الفضل في تدبير واقع يمارس فيه الشغيلة وغير الشغيلة حياة لا بأس بها فذلك مردود بجملة اشياء : منها ان الثورة تحدث بذريعة تحرير الناس من قيود موجودة وليس من أجل تبديل قيد قديم بقيد جديد ولو كان من ذهب • ومنها أن البركة ليست مقصورة على الثورة او على الأشتراكية فان أمما في منتهى الامان

والضمان والرفاهية والحرية لم تسفك قطرة دم واحدة ولم تفرض على نفسها شعارا مقدسا واحدا غير حرية الارادة • ومنها ان الاشتراكية التى انبثقت من الثورة عندكم كلفت ثمنا باهظا من الدم والدمع والكرامة وضياع الآمال على مدى سنوات مروعة بمآسيها وكوارثها • ومنها ان آثارا سلبية كثيرة تعتور حياة الأنسان السوفيتى نبعت ابتداء من التطبيقات الاشتراكية وما زالت حتى يومنا هذا ذات وجود محسوس يتشكى منه الناس • فانه سواء ما اذا كان التقدم حصل بثورة ام بوسيلة أخرى يبقى الناس أحرارا في اختيار صورة الحياة التى يرغبون فيها بصرف النظر عن توافقها أو تخالفها مع وسيلة التقدم الأولى • ثم انه لاشك في استحالة دوام الحال في أى بلد الى نهاية الزمان يستوى في ذلك روسيا ورووديسيا وجزر القمر ، وخير البر عاجله ، كما يقول الحديث الشريف ، وقد بدأتم بالبيريسترويكا فلا مصلحة مطلقا في رسم حدود مقدسة حولها منذ البداية لا يمكن تخطيها • ولا توجد ضرورة للأعلان عن نبذ الاشتراكية ولكن لا مهرب من الاقرار بمبدأ تطويرها حسب اقتضاء الحال واول الضرورات في قائمة التطوير هي الاعتراف بحق التملك والحافز الفردى في حدود الاعمال التى بطبيعتها عمل أفراد • واسمح لنفسى أن أقول ان ربط الديمقراطية بالاشتراكية وتعليق زيادة احداهما على زيادة الاخرى حلم جميل في صورته الظاهرة ونبيل من حيث النية التى وراءه ولكنه حلم مستحيل التطبيق والتحقيق لان ربط الحرية بأى شىء ليس في سياق الحرية نفسها هو تقييد وحرف لها الى غير وجهتها • بل انى اتخطى في ذلك حتى هذا الذى قلته في ربط الحرية بالحرية رغم أنه يعنى اطلاق المجال أمامها بما لا مزيد عليه لان حكم الواقع ودواعى المصلحة الحقيقية قد يكون مستلزما لصب مفهوم الحرية في صيغة مقيدة بشروط تمنع

لحوق الحيف بالناس الذين لهم قدرة محدودة في التنافس وهذه حقيقة تتجاوز المفهوم الشائع من المقولة المشهورة ان حرية الشخص تنتهى عند حرية شخص آخر فهذا من باب البديهية ومن مضامين الحرية نفسها وبغيره تختفي الحرية في أيام ، ولكن المقصود مما قلته من الصيغة المقيدة بشروط هو تحديد الحرية في مجالات العمل والانتاج والتصرف بالدخل وليس في مجال الفكرة المجردة للحرية • والحياة المعاصرة في البلدان الآخذة بحرية الاقتصاد غنية بالأمثلة التى تراكمت على مر الزمان حتى وجدنا ممنوعات كثيرة في الاستيراد والتصدير والتصنيع والتملك أيضا ووجدنا قيودا على التصرف الفردى في مجالات حياته المتنوعة اقتضتها الاحوال المستجدة • فاذا كانت الاحوال المتغيرة تفرض شروطا على الحرية تسلكها فعلا في سياق الاشتراكية التى لا قهر فيها فان هذه الأحوال المستجدة التى فرضت البيريسترويكا في الاتحاد السوفيتى ستطلب حتما رفع قيود مصبوبة سلفا في صياغة الاشتراكية المفروضة من أعلى لأن التطور الحضارى قد وصل حدا طلب فيه من الحرية نفسها ان تقيد نفسها فكيف يرضى ان تقام الموانع بوجهه ابتداء على صورة لا تقبل ازاحتها في يوم من الأيوم ؟ والواقع هو أن ضوابط الحرية في مذهب الاقتصاد الحر ما هى الا صورة من صور التنظيم والأدانة اقتضتها طبيعة الحياة المتغيرة اما قيود الاشتراكية الماركسية المفروضة على حرية الناس من خارج مستلزمات الحرية نفسها ومنذ ما قبل وضعها ـ اى القيود ـ في التطبيق فهى قيود حقيقية تأباها طبيعة الحياة وطبيعة الاقتصاد بل طبيعة الاقتيات نفسه •

اما التصور بأن الزيادة في الاشتراكية تعنى او تطلب الزيادة في الحرية فهو تصور يجب أن ينحصر ابتداء في حدود المشاريع الكبيرة

التى تحتمل معنى المشاركة ولا يجوز قطعا تسريبه الى دكـــان صباغ الأحذية وبايع القهوة على ناصية الشارع • ان الحرص على حقوق العامل غير الماهر الذى يضيع في المنافسة لا ينبغى ان يقضى على طموح الفرد او الجماعة الذين لهم فضل خبرة وفضل حماس وفضل مهـــارة في انتـاج السلعة أو تقـديم الخدمـة لان ذلك بمثـابة تشويه أبهام الفنان العبقرى حتى يستوى مـع اوساط الفنانين : الحضارة الحقيقية تستطيع ان تجـد العمل المناسب لـكل شخص وهى مسئولة بالاساس عن ايجاد المعيشة عن طريق الضمان الجمـــاعي حتى للكسيح والشيخ والعاطل فما بالها تهزل فستر قصورهـــا بتضيق المجال امـــام الأملى الطامح ؟ بدعوى مـــن الأستغلال ••؟

يحضرنى مثـال لا املك دفعـه سـاقه ذكر الاستغلال : فان افرادا كثيرين جلهم سيدات ، يتقاضون اجـورا عن القيام بالعمـــل الداخلى للبيوت من كنس وغسل وتنظيف يكسبون منها مبالغ اكثر مـــن أيـــة اجرة يكسبها العامل في الاشتراكية وغير الاشتراكية وهم بعـــد قضاء واجبهم يساوون أى فرد آخر من ناحية الاعتزاز بالكرامة فهم في ختـام الحساب وباستعمال المبادىء النظرية الباردة يكونون مستغلين ـ مأجورين ـ مـن قبـل اصحاب البيوت ويكونون من جهة أخرى قد استغلوا أصحاب البيوت بزيادة الأجر الذى يستوفونها منهم ، ولـكن منطق الحيـاة يقول انه لا وجود للاستغلال مـــن اى نوع فهو تراض بين الجهتين ولو أراد اولئك القائمون بالعمل اجورا اعلى لنالوها بلا امتعاض • لقد رأيت بعينى في يوم ١٤-٣-١٩٧٩ فتاة تكنس ممرات جامعة مدينة ماينز بالمانيا الغربية : لقد كانت بـكل تأكيد اجمل فتـاة وقـــع عليها نظرى في الاماكن التى زرتها بالمانيا وباريس ولنـدن في تلك الرحلة وكانت ملابسها ، بـــكل

تأكيد أيضا ، لا تقل نظافة عن ملابسى وتفوقها اناقة ، وكان باديا عليها شعور الراحة والرضا عن الذات باستعمال الجهاز النشط الجذل الذى تسوقه بيسر وبلا تعب في امتصاص التراب والتقاط فتات الورق والشوائب وكانت تعمل لحسابها الخاص وليس للقطاع الاشتراكى او الجماعى واقولها بكل قناعة انه لو تم قلب عملها الى شكل اشتراكى فان أجرها يقل واعتزازها ينكسف وملابسها تخشوشن وزهور حسنها تذبل والجهاز في يدها يعطب واكداس الزبالة تتراكم في الممرات .

في رأيى ، ان مزيدا من الاشتراكية في اى نظام مستند الى (الدكتاتورية) مهما يكن نوعها واسمها هو مزيد من الدكتاتورية لأن التوسع الدكتاتورى في تسييس الناس هو توسع في خلخلة خصوصياتهم وصوغ انماط معاشهم وقولبة رغباتهم وطموحاتهم وتحريم امكانات سخطهم .. فاذا افترضنا ان الديمقراطية التى تنجمها الاشتراكية بحسب مقولة (مزيد .. ومزيد) طالبت أو حاولت أن تعبر عن ذاتها بتعدد الاحزاب فماذا يكون رد فعل السلطة منها ؟ رد الفعل هذا لا يكون قطعا استقباله بالزهور والرياحين !

ان ظاهر الاشياء يوحى بأن مزيدا من الديمقراطية يستوجب تناقصا في تدخل الحكومة بحياة الناس وليس يستوجب مزيدا من الاشتراكية فما قامت الديمقراطية أصلا الا للحد من سلطة الحكومة وللتوسيع على الناس فيما يحبون ويكرهون . وبافتراض ان دكتاتورية البروليتاريا وحكومة الحزب الواحد وآيديولوجية تحريم التملك استطاعت ان تكف يدها في ظل البيريسترويكا عن التدخل البالغ فيه في حياة الناس وحرياتهم وانها وقفت عند حد المزاوجة بين الاشتراكية والديمقراطية فسيحدث في وقت قصير أن تطوى المساحات الأجتماعية التى تتوافق مع

الاشتراكية بلا قهر وبرضا الناس وطلبهم ويبدأ عندئذ مرحلة تقليص حرية النقد تسترا على حالة الانكماش في التوسع الاشتراكي • بعدها تأتي مرحلة الرجوع على الحريات التي أقرتها في اول مراحل الانفتاح تظاهرا من السلطة بأنها في صدد تطوير الحرية وتوسيعها حسب دواعي العصر وهكذا ..

أقرب الأشياء الى البداهة ونحن نتكلم في الديمقراطية ان يكون في طوع الناس صياغة حياتهم على النحو الذي يرضي نفوسهم ، فليس من حق الاقتصاد البرجوازي والتملك الفردي ، مثلا،منع طريق الاشتراكية الكاملة أو الشيوعية بما فيها اختفاء (السلطة) على حسب زعم لينين • فهم اذا ارادوا تبديل الاقتصاد الحر بالاقتصاد الموجه أو المقيد أو المشاع كانوا اصحاب الشأن في ذلك شريطة أن يحدث بالاختيار الحر • كذلك الشأن في ديمقراطية البيريسترويكا فهي لا تكون ديمقراطية حقيقية الا اذا أقرت للناس تبديل النظام أو تبديل نظام بنظام • وأظن ذلك سيوفر كثيرا من الجهد والتعب والمآسي سواء في عالم الاقتصاد الحر أو في عالمكم • ومما يزيد في ضرورة القبول بهذا الأسلوب السلمي الطوعي للتطور هو أن اى ممارسة للقهر من قبل الغرب او الشرق تشجع اشكالا كثيرة من التنظيمات الارهابية والايديولوجيات المتشنجة على التمادى والأصرار في طريق العبث بالدنيا وسلامة شعوبها ، ولقد قيل ان الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون• ثم ان الدعوة الى تحرير ارادات الشعوب من الكوابح ليست حربا صليبية ضد الشرق أو الغرب ولا تحتمل معنى تآمريا ضد أية جهة الا اذا كانت الجهة نفسها تضيق بالحرية كما تضيق البيروقراطية السوفيتية بالبيريسترويكا • وبشيء من المسامحة مع النفس ومع الناس ففي امكان

اعادة البناء أن تمضى قدما بلا تعثر وذلك أولا بالدوام على اجراء الانتخابات الحرة دورة بعد دورة في اتجاه توسيع صلاحياتها حتى لا يتعالى عليها الحزب او المكتب السياسى • ويصاحب ذلك تحرير القضاء من كل هيمنة رسمية وتطويع أجهزة الاعلام والنشر للاستعمال الحر بفك انحصارها في نطاق رغبة السلطة ، فالانتخاب الحر والقضاء الحر والاعلام الحر فضلا عن كونه من ابجديات الحريات العامة فهو كفيل ايضا بمنع عودة القهر والحظر ، وضمان للانفتاح على خير أوجه النشاط الاقتصادى ، ولا أظن ان التوصل الى افضله يستدعى أكثر من الدوام على التعديلات الابتدائية التى جرت أخيرا حتى يكون الفلاح مالكا لقطعة أرضه مع بقاء التعاونيات ما دامت قادرة على الاستمرار بنجاح وحتى يحصل تعميم الملكية الخاصة في الاعمال التى لا تحتمل المشاركة وهي من الكثرة والتنوع بحيث تستطيع امتصاص الملايين والملايين من العمال والكسبة في مهن ومصالح حرة محدودة النطاق بطبيعتها ولا تئول أبدا الى حجم بيت روتشيلد وبيوت المال في الوول‌ستريت وتبقى المشاريع الكبيرة ملكا للدولة وتترك احتمالات التوسيع والتعديل للمستقبل حسب ظهور المتغيرات • أنا يا سيدى لست ضليعا في رسم سياسات الاقتصاد حتى اتصدى لتخطيط اقتصادكم ولكنى اتكلم بحدود ما هو وارد من فقرات كتابكم في وضوحها الذى لا يلجىء المعقب عليها الى التضلع والتفلسف ، ومن حولى قناديل كثيرة من تجاريب الشعوب تضىء الدرب امام بصيرتى وبصرى للعثور على الطريق الآمن نحو الرفاهية والسلامة • وأضيف الى ذلك من البديهيات التى يدركها الانسان بأحاسه قبل أن يوغل فيها بفكره كأن أقول أنه بمثل ما يتكون جسم الكائن الحي من نسيج مترابط متشابك متداخل متعاون فتتوقف صحته وسلامته على تناغم تلك التشابكات

والترابطات وانسيابية تعاونها حتى لا يحس بها الكائن الحي وكأنها موجات الطاقة في حركتها التلقائية الخالية من الجهد المتكلف ، كذلك حال المجتمع في ارتباط صحته وصحة مرافقه بشيوع التناغم الكامل بين أنشطتها التي لا تحصى حتى يحصل نموها الكامل والأقصى في تلقائية وبلا حاجة الى مقارعة العراقيل وتخطي العثرات ، واول هذه الشروط للتناغم هو شيوع الديمقراطية ومستلزماتها من حرية الاختيار والطلب والحركة والاعلان عن الذات وما لا يخطر على الذهن من وسائل تحقيق الهدف .. يجب شل كل ارادة متعالية تريد أو تستطيع اعاقة حرية التصرف ، لذلك يجب أن يختفي شبح سيطرة الحزب والاجهزة السرية المرعبة والبيروقراطية الخانقة لانفاس جميع المصالح. في العادة يجب أن تكون سبل الأتصال بالدنيا داخلا وخارجا مفتوحة سواء بتسهيل السفر وبتسهيل الاستيراد وبتسهيل التصدير وبتسهيل الموارد والمواد الاولية ولا يكون لغير سلطان القضاء والقانون سلطان من أحد يتدخل بين الافراد والجماعات وبين رغباتها ومصالحها المشروعة : يجب قطع الطريق على المحاولات الخبيثة للألتفاف حول القوانين والانظمة فالحياة الأجتماعية الناجحة نشاط مستمر ومتعاون ومتساند خال من الارادة المنفردة القادرة على العبث أو الاعاقة او التخويف . فالواقع هو أن الديمقراطية وجه واحد لسكة ، وجهها الآخر هو حرية التصرف بما فيه الاقتصاد ، وتمثل الحضارة بالوجهين المذكورين مع ما يلحقهما بالضرورة من الانشطة العلمية والفنية والاجتماعية ... الخ . هذه هي الارضية التي تزدهر فيها العلائق الانسانية المنعشة المجزية ، وكل معنى مخالف لها يستتر وراء عناوين خادعة هو وضع العصا في دواليب المركبة . ولسنا بصدد تبيان المقتضيات

التى تفرض بعض الحدود والموانع بسبب من المصلحة العامة وقد مرت الاشارة اليها فيما سبق .

لقد كان المظنون في الفيزياء وفروعها المختلفة المتصلة بالطبيعة التى ليست لها ارادة واحساس ان ماديتها تفرز قوانين مفروغا منها ومحتومة ولا مجال فيها للاحتمالات ، وما زلنا في تصرفنا العام نتحرك على هذا الزعم ، فتبين ان ذلك ليس هو واقع الحال - في واحدة من اقوى النظريات الحديثة - في المكونات الجوهرية للمادة فالدقائق التى ترصد بالاجهزة السحرية تتصرف بطلاقة في احوال كثيرة وتكون موجودة في مكانين مختلفين في آن واحد .. وهكذا ! وكنا قبل الاطلاع على هذه الحقائق الفيزيائية المحيرة نرى أن الأحياء اصعب في تطويعها للنواميس من المادة الخرساء وان البشر بقابلياته المتنوعة وفي قمتها عامل (الوعي) يتوزع على اعداد لا تحصى من كيفية التصرف والاختيار تشغل المسافة بين الخيانة والتضحية ، بين الألحاد وعبادة الوثن ، بين العلمانية المطلقة والاتكالية المطلقة ، بين الشر المحض والخير المحض .. فجاءت الحقائق الطبيعية لتؤكد هذه الصفة الزئبقية في البشر بثبوت كون المادة الميتة نفسها لا يعرف لها تصرف محتوم . واذا كنا نجهل ماذا يريد الفرد الواحد وكيف يتصرف في أمره فنحن اعجز في استشفاف مستقبله وهل يستقر على حال واحدة ام انه يتسارع في التبدل ام يتباطأ ! ولا نعلم مديات التطور التى تحصل بتغير الاجهزة المصنوعة حتى اننا لا نستطيع القطع بالصورة التى يكون عليها (الشطرنج) بعد مئة سنة وهل سيكون هناك عمل بمعناه الحالى بعد خمسمئة سنة ؟ وكيف يكون الأجر على المشقة ، وما المشقة نفسها في المستقبل البعيد ؟ نجهل هذه الاشياء وغيرها مما سيتمخض به المستقبل وكشوفه العلمية

والتكنيكية خلال الوف السنين ، تجهل ذلك ولكن ينبغى ان نكون بعقولنا وآمالنا وتصرفنا في سياق هذا التطور الذى ليس له حدود • وان اول واجب مقدس وخطير يقع على عاتق طلائع الفكر والأجتماع بفروعه المختلفة تعجيل اليوم الذى تجرى فيه الحياة بطلاقة ويكون ذلك بحمل كلفتين كبيرتين : الكلفة الأولى هى الوقوف بوجه اعداء الطلاقة في كل الأصعدة وهى مهمة ضخمة جدا لا تبدو على حقيقتها الا بالتمعن العميق فيها ويكفى لها مثال واحد مطروح لفطنة القارىء : هناك عراقيل هائلة في مسار الانسان منذ آلاف السنين لم تزل تعيش بقوة واعتزاز وتكتسب الزخم فتهزم الحضارة والعلم في احوال كثيرة ••• والكلفة الثانية هى تجريد الطلائع ذاتها من أسار الأفكار المسبقة والفرضيات المفروغ منها ، ثم التنازل عن النخوة في تبديل فكرة محترمة بالية بأخرى جديدة لم تكتسب الأحترام بعد ، ونبذ فرض الرأى على الناس من منطلقات استعلائية او موسومة بروح المغالبة القبلية وما اليها فلابد لها من ايمان مطلق بكون مجموع الناس وليس ممثلوهم الرسميون هم أصحاب الشأن في تقرير ما يوافق مصلحتهم • ان مشكلة الحرية ليست مع المؤمنين بالحرية في اطارها الواسع الذى يشمل كل أوجه الحياة بما فيها الاقتصاد ولكنها مع المؤمنين بأنفسهم فقط وبمقاييسهم فقط وبشعاراتهم وعقائدهم فقط • المشكلة ليست في تقابلكم مع الاسكندنافيين والسويسريين والهولنديين وشعوب فرنسا والمانيا وبريطانيا وامريكا فهؤلاء ، في واقعهم البعيد من السلطة لا عداء لهم معكم وان كان من عداء فهو بين السلطة في حلف الأطلسي وبين السلطة في حلف وارشو وهو عداء من نوع تأريخي يقوم بين الدول منذ كانت دول وقد قام بين الرأسماليين في حربين عالميتين وقام بين الروس والصين

وبين الفيتناميين والكمبوجيين وقام بين الشيوعيين في الوطن الواحد متنازعين على السلطة وستقوم بين غيرها وغيرها من الرأسماليين والشيوعيين وأصحاب العقائد الدينية وغير الدينية وحديثها له مجال آخر ، ولكن يمكن أختصار القول فيه الى أقصى حد ان علاجها الأكبر والأكثر حسما هو في شيوع الديمقراطية على أوسع مدى ديمقراطية لا تأويل فيها ولا بتر ولا تضييق . فالخطر الأكبر كامن في تركز السلطة بيد الحكومات فهي ذات وجود شرعي وتتصرف في الأمور على وجه الضرورة بحرية ذات اطار يتفاوت في السعة ولكنه ذو مساحة ملحوظة في اكثر البلدان وتملك وسائل اقناع كثيرة في أشد البلدان ديمقراطية وليس يوجد شيء يوازن به الشعوب سلطة بلدها الا الديمقراطية الحقة وذيوع التصرف والرأى الحر بما تستلزمه من وسائل التفهيم والتبليغ وأظهار الأرادة وحق الأضراب والمظاهرة والأجتماع حتى اسقاط الحكومة كما سقط نيكسون وأوشك ريغان أن يسقط ، وسقط قبلهما ايدن وآخرون من وزن أخف .. ولا يمكن ان تكون الديمقراطية كاملة أو وافية بالغرض في أيقاف الحكومات عند حد السلام الا اذا كانت ـ الديمقراطية ـ مطلقة التصرف بمصيرها فكل فقرة من عبارة بنص أيديولوجي مفروض على الشعب هي نزع مقدار كبير من فاعلية الديمقراطية المؤثرة الحاسمة . لقد وردت في الثلث الأخير من الصفحة ٣٨ في كتاب البيريسترويكا فقرة أستعيدها هنا لتساعد على تسوير المقصود فقد جاءت : (ولسوف تنطلق نحو أشتراكية أفضل بدلا من أن نبتعد عنها . ونحن نقول ذلك بأمانة ، دون ان نحاول خداع شعبنا أو العالم) أما أنكم لا تحاولون خداع العالم فذلك فضيلة تشكرون عليها وقد قل وجودها في السياسة وكانت عبر التأريخ عزيزة الوجود . أما أنكم لا تحاولون خداع شعبكم فهو كلام مقبول فقط فيما لو جاء

من باب الاستطراد والمشاكلة اللفظية مع (عدم خداع العالم) والا فانه ، يا رفيقي في الأنسانية ويا مناط الأمل في تعديل سياسات العالم ويا كاسر الجليد عن وجه بحيرة الحياة ببلدكم والبلدان المتصلة بكم ، انه كلام يوصد ثلاثة ارباع باب مكون من أربعة الواح كانت تنفرج لمرور المركبات الكبيرة فلا تعود تتسع الا للدراجات والماشين على الأقدام • ان الكلام الشافي والمنسجم مع طبيعة اعادة البناء ومنع رجوع التقوقع هو أن يقول : (اننا نصر على الأشتراكية ما دام الشعب متمسكا بها) وذلك ما يعبر عن روح الديمقراطية الحقة والمصلحة القومية في واقعها الراهن والقادم • ليس الشعب قاصرا حتى يستسيغ التعامل معه بوضعه أمام الأمر الواقع فيقال له هذا طريقك وليس لك غيره طريق فامش فيه راغبا او كارها •• ثم اننا لا ندري متى يبلغ الشعب المحكوم بأيديولوجية محددة القسمات سن الرشد ؟ الا تكفي سبعون سنة ؟ ومتى تنتهي الوصاية عليه ؟ والكلام المقتبس فيه اشارة واضحة الى عدم توافق في الرأى بين القيادة وجماهير الشعب ، من غير الحزبيين ، حول مواضيع منها ، نطاق الاشتراكية ومدى سيطرة الدولة على الاقتصاد وحرية التصرف ، ولقد لاحظت فرقا واضحا بين آراء الكتاب من عامة الناس فيما ينشر لهم في صحف هذه الايام وبين كلام يقوله المذيع في اذاعة موسكو او غالبية الكاتبين في القضايا الدولية بمقالاتهم المنشورة في اعداد من مجلة (قضايا دولية) وآخرها العدد الصادر في شباط ، فبراير ، ١٩٨٩ • وهذه ظاهرة لا تطمئن كل الامال المعقودة على البيريسترويكا • وعلى قدر ما املك من حق الكلام في قضايا مماثلة ومدفوعا بالحرص على سلامة المسيرة التصحيحية يدفعني حسن الظن الى ترجيح كون السبب في صدور مثل هذا الكلام الخطير هو قطع الطريق على البيروقراطية الداخلية والناقمين على اعادة البناء في محاولتهم

زرع الشك ونشر التوجس في طريق البيريسترويكا باضعافها عن طريق اتهامها بالتنكر للاشتراكية والارتداد على التراث الثورى . فاذا كان ذلك هو الواقع فلا خوف من أى كلام يقال بل لا لوم أيضا على اى تمسك بالاشتراكيـــة اذا كـان الشعب يختـار طريقها وان كـان التوافق صعب التصديق بين اختيار شعبى وبين قرار قطعى مفروغ منه صادر من أعلى . ان جميع الوعود الحلوة بمستقبل أفضل فيما جاء بالصفحتين ٣٨ و ٣٩ من الكتاب منوطة أولا وثانيا وعاشرا بقناعة الناس وأيمانهم أنهم يعملون مـا يحقق خيارهم الحر او يتحقق من هذا الخيار . صحيح ان حكومة الصين استطاعت أن تمحق حركة المطالبة بالحريات الديمقراطية في ســاعات معدودات وراحت بعـد ذلك تعلن على الدنيـا أنهـا عالجت مسـألة داخلية خيانية ارتدادية وأن الدنيا ستكون بعد ذلك بخير وامـــان ، لكن أغلب الأحتمال انهـا ستعالج الأمور بمزيد من التهديد والـكبت ولا نظن مقاليد الواقـع ترضخ طواعيـة لرغبة مجردة في الاصلاح دون أن تكون مسلحة بأسباب النجاح وأولها ايمـان الجماهير أنهـا تعمـــل الشىء الصالح بارادتها ورغبتها . اقول للتوضيح انى اسمع ان ادارات المؤسسات الانتاجية في اليابان ابتـدعت اساليب مبتكرة لامتصاص نقمة العامل منهـــا انهـا صنعت تماثيل آدمية بمواصفات حددها علم النفس مخصصة لـــكى يلكمها ويركلها العامل المتضايق تفريغا لشحنة القلق المتجمع في نفســه ، ويروى المؤمنون بالحلول الجذرية قصـة هـذه الوسيلة من باب البرهنـة على تزيف المستغلين اليابان لاحاسيس عمالهم .. ولا أناقش تعليل هؤلاء القوم وافترض صحته ولـكن ستبقى هـذه الوسيلة اليابانية الملعونة أشرف وأنبل مليون مرة من قتل العمال المتضايقين بالجملة ، ويااليت أن زعمـــاء الصين صنعوا بضع مئـات الالوف من هـذه التماثيل فنشروها في المـــدن والقرى ليفرغ فيها مئات الملايين من المتضايقين ضيقهم وغضبهم قبـل ان

بلجأوا الى وسائلهم الانسانية الثورية من دبابات الشعب ومدافع الشعب وسجون الشعب والتحريم الشعبى لاعتراض الشعب على خيارات السلطة والحزب !!!

جاء في وسط الصفحة ٣٨ من الكتاب ما يلى : (ومزيد من الاشتراكية يعنى مزيدا من الوطنية والطموح لمثل نبيلة ..) وهو كلام ورد ضمن كلمات كثيرة مماثلة كلها اشراقات وبشائر من مثل ان مزيدا من الاشتراكية يعنى :

مسعى ديناميا وجهدا ابداعيا ومزيدا من القانون والنظام .

مزيدا من الاساليب العلمية والمبادرة في الأدارة الاقتصادية والكفاءة في الادارة .

حياة اغنى ماديا وافضل للشعب .

مزيدا من الثقافة والانسانية في الانتاج .

مزيدا من العلاقات الاجتماعية والشخصية بين الناس .

مزيدا من الكرامة واحترام الذات بالنسبة للفرد .

مزيدا من الاهتمام المدنى بشئون البلاد الداخلية والخارجية .

مزيدا من كل هذه الاشياء الكامنة في الاشتراكية .

أقول عن هذه الاشياء ببشائرها وكل البشائر المماثلة المنبعثة من الافكار والعقائد المجردة انها جميعا ديكورات حول الشعار الاساسى المرفوع فوق رؤوس الناس وتتساوى فيها الجهات الأربع الأصلية من شرق وغرب وشمال وجنوب والجهات الفرعية من شمال غربى وجنوب شرقى ... الخ . هناك نصائح وتوصيات خالصة ناصعة تسلسلت منذ الوف السنين وبعضها مشفوع بالثواب الابدى ولكن الذى

فرض نفسه على الناس من السلوك والتصرف والخلائق كان شيئا من مواليد الواقع المشوه والواقع الوسط او الواقع الصالح • واقولها بثقة مطلقة أن اس الاساس في الخلق الاجتماعي السليم وهو الخلق الذى يتجوهر حول المعنى العميق لكلمتى (الواجبات والحقوق) فلا يتجاوز الى العدوان والتقاعس ، يتحدد في نضج القيم الحضارية المتولدة من الواقع النظيف المتقدم الذى يصبح فيه الالتواء مرفوضا رفضا قاطعا من ضمير عامة الناس ويكون الملتوى فيه مفضوحا ومنبوذا ، ويبتعد فيه اوهام التسلط وفرض الذات ومخالفة القوانين وانتهاز الفرص من اذهان الناس حتى ان المستطرق في آخر الليل بشارع مقفر لا يفكر في تخطى اشارات المرور على حين يعتز الشخص القوى في اغلب بلاد عالمنا الثالث بالمجاهرة والتحدى في كسر كل الانظمة ومعه صفعة على خد رجل المرور •• السلوك المتحضر هو الضمان الاوحد للتصرف السليم الذى يقود الى هذه (المزيدات) المستخلصة في الصفحة ٣٨ ، ولست بصدد التفلسف في تعليل قدرة الحضارة على تقديم السلوك ولا بصدد احتمال وجود مصدر آخر للسلوك القويم مستقل عن مفهوم الحضارة الحديثة ، وهو مصدر مقصود وموجود ايضا ، فأكتفى فيها بقولى ان متطلبات الحضارة ومقومات وجودها ودوامها وارتباط فاعليتها وعطائها بالسلوك السليم اضافة الى طبيعتها التهذيبية هى التى تلجىء الأفراد والجماعات الى الألتزام بما تطلبه الحضارة من تقديم (الواجبات) على (الحقوق) حتى ان الاخلال بمعاييرها يعود بالضرر المباشر على المخل نفسه وعلى غيره • ويمكن تشبيه ذلك بحالة جماعة سافرت في حافلة فكل واحد منهم حريص على سلامتها ولا احد منهم يفكر في ثقب اطاراتها وقد يعبث بها شخص شنيع الخلق من خارج الحافلة ولو كان ضمن ركابها لما عبث •• شركة توزيع الحليب محتاجة

لحسن قيام موظفى الكهرباء بواجباتهم حتى تستطيع الصعود بالمصعد الى سكان الطبقات العليا في العمارة ومحتاجة الى أمانة رجل المرور في تنظيم السير كى تصل الى مواعيدها في اوقاتها المحددة .. وهكذا فالكل محتاج للكل في الضبط والانضباط واداء الواجب فيصبح التخلق بالسلوك الحضارى ضرورة وعادة متأصلة في النفوس ولا تتكلم في الشواذ والمجرمين ومن اليهم .. وعلى قدر تخلف المجتمع وانقطاع الارتباط بين مصالح مجموعات سكانه وعدم توقف معيشة هذا على معيشة صاحبه يهزل الشعور بأولوية (الواجب) . ونظرة دقيقة واحدة الى حالة القرى في تأريخها المديد ومعرفة انعدام المرافق العامة فيها التى يستفيد منها عامة سكانها ان روح الفردية وعدم الاحساس الجماعي المستحوذ عليها راجع الى هذا السبب ، وبقياسهم الى اهل المدن نجدهم يفتقدون في القرية تلك المرافق التى تدعو سكان المدن الى المشاركة الوجدانية فالمدرسة والسوق ودائرة البريد والمحاكم والمستشفيات والبوليس والمجارى و .. و .. كلها مرافق عامة اذا تعطل واحد منها عم ضررها جميع المدينة ولا يوجد واحد من تلك المرافق في القرية ـ يوم فتحت عينى على هذه الدنيا بوعى منذ خمسين سنة واكثر ـ وقد احصيت في بلدى ملتقى مصالح القرية فوجدته ينحصر في ١ ـ بيت العبادة ٢ ـ ساحة البيادر في بعض القرى ٣ ـ الساقية في القرى المسقية ٤ ـ المقبرة ٥ ـ مضيف المختار في القرى الكبيرة ولاشىء بعد ذلك حتى يوم انتشر فيه التعليم والخدمات الصحية وبعض الخدمات الزراعية بعد الحرب الثانية بأكثر من ربع قرن فكانت الأحوال في القرية تخلق روحا للفردية المتأصلة بحيث ان هلاك مصالح الجار لم يكن يؤثر في جاره بل ربما كان بوار زراعته سانحة توفر لجاره يدا عاملة يحتاجها .. ومن خلال هذه البديهيات انظر الى مقوله

ان مزيدا من الاشتراكية يعنى مزيدا من الوطنية والطموح لمثل نبيلة فأجد ان زيادة الأحساس بالممتلكات عن طريق التملك الفردى أحرى أن تخلق في المواطن مزيدا من الوطنية والطموح لزيادة ارتباطه بملكيته الخاصة ومشاركته عامة الناس في الارتباط بالملكية العامة فهو في القياس يكون كالوالد الذى له نفس احساس بولده من صلبه فهو في حالتى الأبوة والملكية الخصوصية ذو دوافع أقوى في الوطنية والذود عن الموجود من شخص لم يتزوج ولم يملك مالا خاصا . ولنا زاوية أخرى ننظر منها الى الموضوع فالمواطن يحب وطنه أكثر من اوطان الأباعد ولا أحد يلومه في ذلك فهل يلام اذا احب ملكه الخاص أو ولده من صلبه حبا متميزا ؟ الواقع ان زيادة ارتباط الأنسان بالاشياء تأتى من خصوصية ارتباطه بها . وحتى يتساوى حبه لما يملك مع حبه لما لا يملك من اطايب الحياة في وطنه لابد له من قطع طريق طويل شاق في مراحل التحضر وتكوين قيم (عامة) بديلا عن قيم (خاصة) وعليه بعد ذلك قطع مرحلة شاقة أخرى للاندماج في القيم العالمية حتى يتساوى حبه لوطنه مع حبه لكل الأوطان وذلك أشبه بالأحلام ولا نرى له اليوم ضرورة ملحة لأن الوقت فيه مبكر جدا وقد كفى ان يتساوى جميع الناس في منح حبهم لما تميل اليه قلوبهم بلا عدوان على الآخرين وليست بهم حاجة لتكلف سلوك لا ينبع من نفوسهم ولا من مقتضى الاحوال التى تكتنفهم. اننا اذا أخللنا بالمعايير المعتادة النابعة من طبائع الاشياء وصلنا سريعا الى القول بوجوب تخلى الفرق الرياضية الممتازة في مسابقات الاولمبياد عن اصرارها على حيازة الاولوية كى تتجلى روحها النبيلة بتفضيل الضعيفة على نفسها .. وانتخاب ملكات الجمال من بين الأقل حسنا جبرا لخواطرهن .. ومنح الطلبة الأقل ذكاء اعلى الدرجات من باب التشجيع وهكذا .. اذا تخلينا عن مبدأ تجريم التملك وأطلقنا الحرية للفرد في

المجتمع الاشتراكي والفرد في مجتمع الاقتصاد الحر يتساوى الفرص امام الجميع فأن حقائق هذا العصر ستعين الفرد غير الاشتراكي على الفوز بقصب السبق كما اعانت الفلاح المالك لجزء من الارض في روسيا على تجاوز الانتاج الجماعي بنسبة ١/٦ .

اما الطموح لمثل نبيلة فهو بدوره من ثمرات الحضارة فالأشتراكية في كمبوجية وفي بلاد أخرى متخلفة لم تقدر على تقديم شيء بعيدا عن العنف والدموية وكذلك الاقتصاد الحر في اغلب بلاد العالم الثالث كان مصيدة لجمع الغنى والجاه من قبل القادرين والمتنفذين مع ملاحظة ان اشتراكية بولبوت اخذت من جماهير الناس ثمنا باهظا وتضحية هائلة حتى جاءت الى الحكم فمارست جرائمها وقتلت اكثر من مليون انسان على حين يسود الفساد في العالم الثالث غير الاشتراكي كرات متنقل من الماضي بلا تضحيات فهو فساد رخيص بقياسه الى كلفة اشتراكية دموية . والحق هو أن أكبر الغنائم الاعتبارية التي يحوزها الانسان في البلدان المفلسة التي لم ترفع شعارات تطلب التضحية بالنفس هي قدرة الشخص على ان يقبع في داره يمارس كسله وتخلفه وفقره عوضا عن اندفاعه الى المهالك بتحريض رافعي الشعارات التعجيزية فليس مما يسلي النفس ان يكو هلاكه في اتون معارك الثورات العقيمة بدلا من موت الخمول في ظل حائط أو شجرة ، ولا فخر في الأنصياع لحاكم ثائر يسوق الناس الى حيث تطيب نفسه هو بالقياس الى عيشة زرية في ظل رئيس قبيلة أحمق بلا طلبات باطلة .

وفي غياب الحضارة لا تساوى الشعارات قيمة تعادل ثمن القماش والحبر المستهلك في كتابتها ، والملحوظ هو أنه حيثما كانت الحضارة راسخة قلت بل انعدمت الشعارات وسلك الناس سبل حياتهم بلا ضجيج

ولا ادعاآت عنترية وتكاد تختفى في كتاباتها العبارات المثيرة المنتفضة بالنوفز وندر الحديث عن وجوب التضحية والارتفاع فوق الرغبات والتخلق بأخلاق الملائكة فهى كلها في احضان الحياة المتحضرة المرفهة من سقط الكلام الذى يزدريه المجتمع المتحضر .

يبقى ان اقول في الوطنية والطموح النبيل شيئا اساسيا لا يجوز اغفاله : من اخطر المخاطر في الامور الدنيوية أن تستند حساباتها الى افتراض الوطنية والنبل والاستعداد للتضحية وما الى هذه المعانى السامية فهى اذا كانت موجودة قامت بعملها الجليل بلا تعب من أحد وأضافت الى ثمرات الأتقان والضبط والادارة الرشيدة فضل بركة اما اذا كانت مفقودة كما هي مفقودة في المعتاد في اغلب الأعمال المأجورة بالعالم الثالث فأن افتراض وجودها كفيل بقتل اى مشروع مهما تكن خطورته ومهما تكن درجة الكفالات والضمانات لسلامته ونجاحه لأن الوطنية المفترضة تنقلب في حالة فقدانها الى هدم وتعويق وتوهين وبعثرة مقصودة ، ففى غياب الحضارة والشعور بالمسئولية ينقلب القيام ببذل الجهد كلفة يرفضها طبع القائم بالعمل ويصبح انتهاز فرص الاسترخاء وتعمد الكسل وتسريب الخطأ الى المنهج المرسوم هو ما يستسيغه المشرف والعامل بضمير ميت.والمشهود الذى لم تخطئه العيون في بلدنا على مدى ازمان طالت حتى اليوم هو انه بعد شيوع فكرة الاستغلال الطبقى أصبح من شعارات الاعتزاز (بذل أقل جهد ممكن) حتى صار العامل يصلي بدل صلاة الظهر الواحدة جملة من الصلوات في الأعمال التى التزمها الأجانب الذين لا يعرفون عدد الصلوات في الشريعة الاسلامية . لقد وجدت في تجربتى مع هذه الاحوال أثناء ما كنت في سنة ١٩٦٠ مدير ادارة شركة تقوم بأنتاج الطابوق الفنى ، ان العامل الحارس بالليل

في الشتاء الذى يزود بالفراش والمدفأة وبأجر اضافي كان يفتح ابواب المجففات الكهربائية طلبا لزيادة الدفء الذى لا لزوم اليه ونكاية بالشركة فيتشقق اكثر من مئة الف طابوقة فنية كل الف منها بثمانية دنانير في تلك الأيام فترمى صباحا في محل النفايات فيكون العامل قد ازداد دفأ روق به مزاجه في بضع ساعات من الليل بتخريب بضاعة ثمنها ثمانمئة دينار والسوق تحتاج البضاعة ومعها الحركة العمرانية في البلد وكل تبرير العامل انه يلحق الضرر بالمستغلين !!!

ان المسئول عن مال عام ، مطلوب منه ان يتخذ له من اسباب السلامة والنجاح وضمانات التقدم ما هو خليق ان يفعله في خاصة ما له ، ولا أظن احدا يخاطر بالقليل الذى يملكه ولا بكثيره اعتمادا على حسن الظن وتوقع التصرف الاوفق • وربما كان ذلك احد الاسباب في نجاح المشروع الفردى قياسا من فشل المشاريع العامة التى يقل فيها الاعتناء بوجوه نجاحها وازدهارها • والعلة في الفرق بين الحالتين هى عودة الخسارة في المشاريع العامة على مجموع الناس • وأوضح ما يكون ذلك من حيث فقدان الحرص على المال العام هو في مشاريع العالم الثالث المتخلف حضاريا • ها هنا في صدد المشاريع الحكومية يوجد عامل حاسم ألصق بها من المعى الأعور بالانسان ذلك ان خيار الامتناع عن العمل الموجود عند الفرد لا يوجد عند الدولة فلابد لها أن تقوم بالانشاآت وتقديم الخدمات والدخول في المعاملات من شتى الانواع والأحجام • ولما كان توالى الفشل في المشاريع وبوار المناهج من استهلاكية وانتاجية وخدمية أقتل داء يصيب الاقتصاد في الصميم ويترك الناس في قبضة الفاقة لاسيما في البلدان المحكومة بالاشتراكية حيث يضيق مجال الجهد الفردى الى حد الاختناق وجب التحسب للأمر الى أقصى حد • والتحسب لا

يكون بأطالة التردد في الاقدام على العمل بسبب الخوف من الفشل فانه اذا كانت الأحوال ومقومات النجاح والفشل واحدة من الصيف الى الخريف فما جدوى تأخير المبادرة ما دامت النتيجة هي الفشل . والذي أراه ، رغم كوني غير متخصص في الاقتصاد (وان كنت لا أقل عن قائد حزبي يشرف على الاقتصاد من موقع مسئوليته) ولكني أدلي بالرأي في حدود المنطق المستوحى من كتاب البيريسترويكا الذي ابدى اليقين في نجاح الإشتراكية بلا دليل الا اخلاصه في القول ، فالذي أراه اولا وقبل كل شيء هو تجريد لقمة العيش والكسوة والسكن والمتع وطريقة الحياة وتكوين الاسرة من الشعارات السياسية والطموحات الايديولوجية والالهامات الفلسفية فلا يطالب الفلاح ان يحرث الارض (بوطنية) ويعلف الدواب (بروح اشتراكية) ويذهب الى الرقص مشحونا بالافكار الطبقية والهموم البروليتارية وان يخطب عروسته بنية زيادة عدد الشغيلة ويفتح الراديو على انغام معادية للامبريالية .. فأن ذلك من قبيل زيادة الملح في طبيخ مالح . انا اعلم ان المجتمعات القائمة بالاساس على الايديولوجيات تستهلك مقادير ضخمة من الكلايش اللفظية الفارغة ولكني أعلم أيضا حقيقتين خطيرتين في هذا المعنى مما الزم من اللازم في وجوب تذكرهما وهما :

أولا ـ يجب ان تنتهي نغمة التغزل في المبادىء والشعارات في وقت من الاوقات وأقربها أحسنها لان الدوام عليه دروشة وهلوسة وذهول عن حقيقة الحياة التي تجري رضية سخية بلا دروشة وبلا مضغ الجمل . ترديد الشعارات والتغاويد الايديولوجية لها مواعيدها ومناسباتها شأنها شأن الزواج في قبوله للطبل والزمر والزغاريد ليلة الزفاف وفي ذكراه السنوية .

ثانيا ـ ان تذكير الناس مدى العمر بوجود التحميد والتقديس للايديولوجيا يجعلهم كارهين لها كراهة الموت وتكون النتيجة ان كل عمل يحرق فيه بخور الشعارات والايديولوجيات يكون مهددا بالفشل • والظاهر ان التحسب لسلامة المشاريع في غير الأتكال على الوطنية والروح النبيلة التى لا تجدى على الاطلاق يقتضى أولا ما سبق ذكره من تخلى الدولة عن الأعمال والحرف الصغيرة ذات الطبيعة الفردية وتركها للافراد جملة وتفصيلا مع بذل المعونة والدعم لها على قدر الأمكان والاقتضاء بتوفير المواد الاولية وتسهيل ظروف العمل و •• و •• على النحو الموجود في الدول المتقدمة • ويقتضى ثانيا الاسترشاد باساليب العمل المتبعة في بلدان الاقتصاد الحر في المشاريع الكبيرة من حيث الادارة والحوافز وتقسيم العمل ••• الى آخر قائمة الاشتراطات • وفي وسط الصفحة ٣٩ من الكتاب كلام يفيد في هذا المقام فقد جاء فيها تعليل للصعوبات والمشاكل في السبعينات والثمانينات فذكرها حتى وصل السبب الأخير لها وهو أنه راجع (للتمسك المتواصل بأساليب واشكال الأدارة الجماعية التى نشأت في ظروف تأريخية معينة في المراحل الاولى للتطور الأشتراكى) ها هنا يستشف النظر المدقق حكمتين كبيرتين :

الحكمة الأولى هى أنه اذا كان التمسك باساليب الادارة الجماعية خطأ مؤديا الى الاخفاق فان التمسك في التسعينات بأساليب أقل تقدما من اسلوب (آخر موديل) في الدول الراقية سيكون أيضا سببا للاخفاق خاصة لأن طبيعة العصر تستدعى التواصل والتعامل مع الدنيا كلها بالاستيراد والتصدير وتبادل الخبرات والزيارات فليس من المقبول الدخول في حلبة السباق بسلعة مدهونة بالكلايش اللفظية وبالحكم

المركومة في الارشيف الثورى فان كل ما يمكن تقطيره من البراعة الادارية من ارشادات ماركس ولينين لا يساوى لمحة ذكية واحدة من متمرس بالتعامل المتفتح مع تكنيك الالات ونوازع النفسيات .

والحكمة الثانية هى ان الشجاعة الادبية التى تفتح دفاتر الماضى لكشف اخطائها مطلوبة بصورة مضاعفة لكشف دفاتر الحاضر تجنبا لتمكين الخطأ من ان يفعل فعله المميت في عصر متسارع الخطى لا يستطيع التوقف ريثما يسمع عذر المخطىء والمهمل والمفرط فالخطأ وفجاجة الأسلوب واضحة منذ الخطوة الأولى لان وسائل الأتصال العصرى تجعل النماذج الناجحة من كل نوع في متناول يد جميع الحكومات والهيآت والأفراد فلا عذر لأحد يبدأ بالخطأ لانه يقدر أن يعرف ما هو الصحيح فلا يجديه تحججه بأن مذهبه وعقيدته وسلامته الآيديولوجية تأبى عليه كذا وكذا فالاقتصاد وتوفير لقمة العيش ليس طقوسا دينية بأركان مقدسة من السماء .. ان تكون كندا مصدرة للحبوب وتكون روسيا مستوردة مرفوض ومدحوض ومنبوذ في كل مذهب ودين وهل من الفطنة والمنطق طلب التكنيك من الدول المتقدمة ثم الامتناع عن تطبيق أسلوبهم الناجح في المشاريع فكلاهما من معدن واحد وليكن انه معدن الاستغلال والتفاوت الطبقى فالظاهر انه وحده يفيض بالخير والبركة .

في آخر هذا الفصل بالصفحة ٣٩ بعد الفقرة المقتبسة أعلاه تأتى هذه العبارة : (فالأشتراكية كنظام اجتماعى فنى ، وكطريقة للحياة تملك امكانيات ضخمة للتطور الذاتى والاتقان الذاتى وعلينا ان نكشف عنها . وتملك امكانيات ضخمة كذلك لحل المشاكل الرئيسية للتقدم العلمى والتكنولوجى والاقتصادى والثقافى والفكرى للمجتمع المعاصر ولتطوير الانسان الفرد) .

ببساطة ياسيادة الرئيس غورباتشوف ، ان حرصكم على الاحتفاظ بالمجهود الضخم الذى اقترن بتضحيات هائلة في تنفيذ الثورة وما اعقبها من سنوات المصاعب القاصمة للظهر في الحقبة الستالينية يحرك فيكم عاطفة البنوة البارة بالسلف فتستعيرون له هذه الاوصاف المحركة للحماس . ولما كنت غير مطلوب لشيء من هذا القبيل وانما انحصر همى في كشف ما اعتقد أنه محاذير يجب تجنبها البيريسترويكا املا في قيامها بالدور المنتظر منها على أكمل وجه فأن لي رأيا حول هذه الفقرات الواردة في النص المتقدم هو ابن التجربة ومحصول منطق الواقع الذى عشته بسعة وعمق . فاول ما اقوله هو أن اى نظام للحكم وللمعيشة يوصف بأنه (اجتماعى فنى) يبتعد كثيرا من ان يكون متوافقا مع الميل الفطرى للمواطن الاعتيادى وهو يمارس الحياة ، لان التنظيم الفنى عبارة عن شبكة متصلة ومستمرة من الاوامر والنواهى والقيود والطقوس والقولبة للحظها في الجندية وفي الرياضة البدنية وفي التمثيل السينمى والمسرحى وفي المهرجانات التى تقام في المناسبات وفي ضوابط الريجيم وفي اركان العبادات وفي قاعات الدرس وما الى ذلك .. ينهض الجندى في الثكنات كل صباح بأنضباط ويلبس بأنضباط ويأكل بانضباط ويمشى بانضباط ولكنه في بيته يحب أن يتمطى في فراشه ويتاءب بفم مفتوح ويسترخى حتى الضحى ويأكل على مزاجه ويمشى بتكاسل او بنشاط حسب الرغبة . انى لأؤمن بانه اذا كان الشعب الصينى يتمرد على حكومته لا لشيء الا لقمة منه على توحيد الملبس المفروض على رجاله ونسائه لكفاه ذلك سببا مقنعا . لقد رأيت بعينى رأسى ما حصل لسيدة صينية تلبس اللباس الرسمى الزائد في خشونته على الرجال حين لبست ملابس كردية مهفهفة بألوان زاهية أهديناها اياها في مناسبة مجاملة فقد

كادت ان تتيه عن نفسها المقولبة على الخشونة حين اكتست بما يشبه ريش الطاووس المتناغم مع أنوثتها ... اذا كان الخيار في الملبس ممنوعا على الشعب فأى خيار يبقى له في المطالبة بجوهر انسانيته ! ولابد من القول ان هناك فرقا كبيرا بين اختيار الشخص لمعيشة منظمة توافقه ولا يعتدى فيها على خيار الآخرين وبين معيشة منظمة مفروضة عليه بأمر فوقى . في حياة كل منا قيود كثيرة من الوظيفة والاجتماعيات ومطالب العيش وحكم الأحوال الطارئة تضايقنا وتمتص جانبا هاما من احساسنا الممتع بالدنيا فليكن ما زاد من وقتنا على هذه القيود متروكا للرغبة الحرة خارج الأطر الفنية .

بصدد كون الأشتراكية تملك امكانات ضخمة للتطور الذاتي يمكن القول ان ذلك متروك لنتيجة المناهج التى تمخض بها البيريسترويكا ، فالاشتراكية فيما مضى من زمان لم تستطع ان تمنح الفرد السوفيتى ابسط الحريات الشخصية المتمثلة في حق السياحة والسفر بلا هيمنة رسمية وتترك الحقوق السياسية والديمقراطية التى كانت محظورة حتى على الحزبيين الا بالقدر الذى يخص منها السيطرة على الجماهير . ومهما يكن من قدرة الاشتراكية على تطوير الذات فهى بالبداهة لا تبلغ في ذلك مبلغ الانظمة الديمقراطية ذات الخيارات المتعددة خارج سيطرة الحكومات والأحزاب حيث يكون كل فرد مدرسة قائمة بذاتها لابتداع انماط الانشطة من ترفيهية وانتاجية وخدمية وغيرها ، واقول موضحا انه حتى الفرد في الدول الديمقراطية يكون أكثر ابتداعا في مشروعه الحر عما اذا كان موظفا في شركة ويكون في الشركة أكثر ابتداعا منه وهو موظف حكومى . والمشكل الخطير ينشأ حين يظهر ان اسلوبا معيبا في احد المرافق الاشتراكية خاطىء او قاصر فيكون تصحيحه او تعديله

اصعب كثيرا عما اذا كان الخطأ في مشروع فردى • وحين تكون المشاريع كلها مرتبطة بالدولة في النظام الاشتراكى فالتصرف فيها على نحو يمكن وصفه بالابداع لا يكون سهلا كما يبدو هكذا على الورق لان ارادات عليا كثيرة تحكم هذه المشاريع وهى التى تغذيها بالمواد وبامكانات وبمجالات التسويق و •• و •• فهى على وجه الضرورة تفقد حرية اختيار الأسلوب لارتباط نجاحه بأرادة وتقدير الجهات التى توفر لها هذه الامكانات • وليس هناك ما يضمن اختيار احسن المقترحات المقدمة الى الادارات في المعامل والمزارع الاشتراكية وغالب الاحتمال ان ينتهى امتياز الاختيار الى الشخص القوى بوظيفته الرسمية في هيكل المشروع •

كل المجالات المذكورة في النص المتقدم تكون في المشاريع الفردية أضمن نجاحا وأسهل تحقيقا منها في الاشتراكية فقد مضى الزمان الماضى بمحصول هائل من التقدم العام الشامل في جميع أصعدة المجتمع القائم على الديمقراطية الحقيقية وعلى الحرية الفردية وبمحصول ضخم سلبى في المجتمعات الاشتراكية وليس يوجد سبب يغير توقعاتنا في المستقبل ولم ينهض حتى اليوم دليل على ان المتغيرات أضعفت احتمالات النجاح للجهد الفردى وينهض الدليل باستمرار على ان المشاريع الكبيرة ذات صفة (المشاركة الجماعية) تكون في المجتمعات البرجوازية ذات الحضارة المتقدمة أوفر انتاجا وأحسن نوعا من مثيلتها في بلد اشتراكى ماركسى ، وهذه حقيقة لا تخفى على أحد ولا يضيق بها حتى الشيوعى شريطة أن يمسح من ذهنه سبق ايمانه بأن العمل المأجور في غير الاشتراكية متدنس ومنحط بالاستغلال • وهذه الحقيقة تكون أظهر ثباتا في كتابات المواطنين السوفيت الذين هم من عامة الشعب ويكتبون في ظل الفلاسنوست بلا خوف فأنى لم أقرأ لأحدهم شيئا مدح الاشتراكية المطبقة عندهم ، وما شذ احدهم في مدح اساليب المعيشة بالعالم القائم على حرية الاختيار •

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق بغداد ١٤٧٨ لسنة ١٩٨٩